سالم بن حمد

ذاكرة تاريخ وتجربة حياة

الطبعــة الثانية
١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

الرقم الدولي
ISBN 978-9948-03-891-7

سالم بن حمد

ذاكرة تاريخ وتجربة حياة

أ. د. علاء نورس

تقديم

سمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان

ممثل الحاكم في المنطقة الشرقية

تقديم

الشيخ سالم بن حم أحد أبناء الوطن المخلصين الذين يُشْهَد لهم بالكفاءة والخبرة والحنكة وسعة الاطلاع، والقدرة على التعامل مع القضايا والمشكلات بحكمةٍ وتدبر مما جعله موضع احترام وتقدير كبيرين من المؤسس والباني المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ورفيقاً له «طيَّب الله ثراه» منذ سنوات الصبا والشباب وهي رفقة طويلة تخللتها الكثير من الأحداث والتحوُّلات الكبرى التي شهدتها دولة الإمارات والمنطقة، وكان بن حم بحكم قربه من الشيخ زايد شاهداً حيّاً على كل تفاصيلها.

لقد عايش بن حم وشهد الإنجازات الكبيرة الضخمة التي تحققت على أرض هذا

الوطن المعطاء ولا شـك أنه أحد الرجال الذين تعتز بهم دولة الإمارات قياسـاً بما قدَّمه من خدمات وأعمـال جليلة لوطنه مما أكسـبه تلك المكانة الرفيعة وهذا الاحتـرام الكبير لدى عموم أبناء القبائل وأهله ومحبيه.

ولطالما عهدنا في الشـيخ سـالم فطنتـه وذكاءه واطلاعه الواسـع مما جعله من أصحاب الخبرة والدرايـة ببواطن الأمور يمتلك الكفاءة اللازمة للفصل بيـن المتخاصمين الذين يلجؤون إليه ويرضون بـه حكماً لاقتناعهم بصواب رؤيتـه ورأيه ولطالما كان المغفـور له الشـيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ يناقشـه في بعـض القضايا والأمور ويطلب منه أن يدلو بدلوه فيهـا وكان بن حم دوماً عند حسن الظن به.

ويحسب للشيخ سالم بن حم أنه كان أحد الأعضاء البارزين في أول مجلسٍ استشاري وطني لإمارة أبو ظبي حيث ساهم وعبر سنوات عديدة في طرح ومناقشة كافة القضايا والمشكلات التي تهم الوطن والمواطن مع زملائه الأعضاء واقتراح التوصيات التي يرونها مناسـبة لحلِّها وتجاوزها وهو ما يعكـس في الواقع مدى حبه وإخلاصه لأهله ومواطنيه وانتمائه الكبير للوطن والقيادة.

وتقديراً وعرفاناً بعطائـه الكبير والطويل فـي مجال العمل الوطني وخدمة المجتمع تم ترشيح الشيخ سالم لجائزة أبو ظبي للأعمال الإنسانية في دورتها الثانية عام ٢٠٠٦ والتي نالها عن جدارة واسـتحقاق وحظي بحفاوة وتكريم خاص من الفريق أول

سـمو الشـيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبو ظبي ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة حفظه الله.

وفي الختام يجـب أن ننوّه بأهمية هذا الكتـاب القيِّم الذي نحن بصـدده الآن لما يحتويه من معلومـات وحقائق ليس كونها تتعلـق بالسـيرة الذاتية للشـيخ سـالم بن حم، وهـو غني عن التعريف، بـل لأنه يتضمن مادة وثائقية وشـهادات حية عن أهم وأبرز المراحل التاريخية والتحولات الكبرى التي مرت بها دولة الإمارات حتى الآن.

طحنون بن محمد آل نهيان
ممثل الحاكم في المنطقة الشرقية
لإمارة أبو ظبي

كلمة المؤلف

تتعاقب الأزمنة.. وتتداخل أحياناً دون فواصل.. وقراءة ما هو ماضٍ تحكمها مستلزمات تأمُّل الحاضر.. وآفاق الغد القادم.. والحياة تجاربها ميادين خبرة.. وتتابع رؤى.. وآمال بحكمة.. وحصاد سنين.. والأمم الحية منذ عصور قديمة أرادت لتاريخها خصوصية مستديمة.. أصالة في العطاء.. وتواصل دون توقف أو انقطاع.. والتاريخ صفحات.. أبهى صورها: إشراقات حضارة.. وعظمة أناس إنجازاتهم ناطقة خالدة.

ويستقرئ الكتاب في مادته الوثائقية جوانب مهمة من تاريخ الإمارات المعاصر.. بين ماضٍ قريب وحاضر. وفي الزمنين عزيمة

وإرادة وإقدام.. إصرار وتحدٍّ.. صبـــر وجلد.. حتى غدت الأحلام والتطلعات حقائق.. والمستحيل إنجازات شـــاخصة.. والمستقبل: آفاقه زاهـــرة.. بصمـــات عميقة منحوتـــة تؤرِّخ الجهـــد الدؤوب المخلص.. والرؤى الثاقبة.. فكان الثاني من ديسمبر عام ١٩٧١: قيـــام دولة الإمارات العربيـــة المتحدة.. انطلاقـــة نهضة متميزة متجددة.. ومســـيرة ظافرة خالدة.. مكانة مرموقـــة عزم المغفور له الشيخ زايد «طيَّب اللّٰه ثراه» على أن تتبوَّأها الإمارات.. دولة عصرية بتجربة رائدة أثارت الانتباه.. ونالت إعجاب العالم.

ولنتأمل الماضي.. بيئة قاســـية لا ترحم.. ولكن السكان من أولي العزم فما وهنوا ولا اســـتكانوا.. بلاد قفـــراء إلا من إيمان أهلها.. ومارد البترول كان متخفياً متعنتاً تحت الرمال والأمواج.

تنفست الرمال في الصحراء.. تأسست دولة الإمارات العربية المتحدة: طاقة نرجس.. ولسان تاريخ.. ونبعاً ذهبياً لنهضةٍ تنفع الإنسان.

كان المغفور له الشيخ زايد رَحِمَهُ اللّٰهُ يحثُّ على التعلم من معاناة وصبر الأســـلاف الذين تغلَّبوا على شـــظف الحيـــاة.. بقوله: من يجهل ماضيه لن يفهم حاضره، ولن يستعد لمواجهة المستقبل.

وســـالم بن حم أحد شـــهود العصر ومـــن رجالـــه البارزين الذين تميَّزت أدوارهم فيه وتعـــددت صورها.. إنه ذاكرة تاريخ..

تجربة حيـــاة.. أصالـــة انتماء.. صلابـــة في الصعـــاب.. مواقف مشـــهودة مفعمة بالوفاء والإخلاص للوطن.. رفقـــة صادقة أمينة بكل امتدادها الزمني مع الشـــيخ زايد «طيَّـــب اللّٰه ثراه».. رفقة الزمن الصعب بكل معاناته؛ لكنَّ إشـــراقات الشـــيخ زايد: حكمة وعزماً ورؤى ثاقبة كانت تعطي للشدة معانيَ وأبعاداً أخرى.. وبن حم مـــن أولئك الذين تعلَّموا في مدرســـة زايـــد.. وحرصوا على الاســـتزادة من معارفها.. سنوات تَلَقٍّ واكتســـاب على امتداد حياة الصبا والشـــباب ومراحل العمر.. حتى غدت خزين ذاكرته بكل سعتها.

الشـــيخ ســـالم بن حم من الرجال المشـــهود لهم بشـــجاعة الرأي.. وبشـــجاعة الموقف.. بـــدوي الانتماء الأســـري الأصيل.. صحراوي النشـــأة بمواصفاتهـــا قيمـــاً ورجولة. عُـــرف بصحبته الحميمـــة ومودته للشـــيخ زايـــد «طيَّـــب اللّٰه ثراه»، شـــهد معه التحديات.. وشهد معه التحولات.. عاش التاريخ بصورتيه.. فكان المخلـــص في مســـاهماته وخدماته.. كما عُرف بآرائه الســـديدة وبخبرته في كثير من القضايـــا التي تخص الوطن والمواطنين.. خبرته صنعتها رفقته للشـــيخ زايد رَحِمَهُ اللّٰهُ قبيل وبعد قيام الاتحاد.. ومجالسته المستمرة ومرافقته للشيخ زايد في العديد من رحلاته خارج الوطن فكانت الســـعة في المعرفة والاطلاع.. وحين تشكل أول مجلس استشاري وطني في عام ١٩٧١، كان الشيخ سالم بن حم من أعضائه البارزين ولسنوات عديدة. إنه واحد من الرجال

المخلصين الذين تعتز بهم دولة الإمارات التي شارك في مسيرتها الناهضة المباركة مثلما شارك في مواجهة تحدياتها طوال عقودٍ مضت.. وفي كل هذا الامتداد الزمني حظي ويحظى الشيخ سالم بن حم بالمكانة المرموقة الجدير بها.. وكان في مقدمة المكرمين عام ٢٠٠٦ بتسلمه جائزة أبوظبي الإنسانية من قبل الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة.

والكتاب بعنوانه ومادته العلمية وأسانيده قد جرى تبويبه في ثلاثة فصول حيث خُصص الأول لدراسة أبعاد الجذور وسنوات النشأة.. وتناول الفصل الثاني الماضي القريب من خلال ذاكرة سالم بن حم.. أما الفصل الثالث الموسوم: الشيخ زايد والتحول في حياة سالم بن حم.. فإنه يستقرئ جوانب أساسية تعطي للعنوان استحقاقه التوثيقي وأهميته التاريخية.. وتبقى الحاجة إلى المزيد من الدراسات الجادة التي تتناول تاريخ الإمارات بحقبه المختلفة.. وللشاهد على العصر خصوصية في الأولوية والأهمية في التدوين التاريخي.

الفصل الأول

الجـــذور..
وســـنوات النشـأة

الجـذور..
وسنـوات النشأة

للمكان دلالات.. وللزمان مؤشرات.. ولكليهما آفاق وأبعاد. وسير الأشخاص في جذورها وبنائها ملامح عصر وأحداث.. وبيئة تكوين وتشكيل لتطلعات وآمال.. والتاريخ سِـجِلٌّ الزمن يخلِّد للأشخاص أدوارهم.. ويقدم للأجيال تجاربهم وشهاداتهم على عصرهم.

الشيخ ســالم بن حم.. شاهد على عصر يمتد منذ ثلاثينيات القــرن الماضــي وحتى الوقــت الحاضــر.. وللمعاصــرة أهمية خاصة.. تفاصيلها تسهم في اســتكمال صورة.. أو توثيق شهاداتٍ لمعاصرين وكتاباتٍ لباحثين عن هذا الجانب أو ذاك، والإمارات ما تزال بحاجةٍ إلى المزيد من الاســتقراء لتاريخها في مراحله المختلفة.. وليس هناك أكثر مــن العين مصداقية وبخاصة حين تكون لأشــخاص كانوا في خضــم الأحداث.. أو عاشــوا زمانهم بمفردات واقعه ووقائعه.

في منطقة الصفا جنوبي الوجن الواقعة في المنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي.. وُلد سالم بن حم عام ١٩٢٥.. وهو بن مسلم بن حم العامري الذي كانت لمواقفه دورها الكبير في استتباب الأمن

والاستقرار في العين وأبوظبي خلال العقود الأولى من القرن الماضي.. كما كانت علاقاته متميزة وقوية بشيوخ آل نهيان حتى وفاته عام ١٩٢٧. وعُرف عن عمه محمد بن حم شاعريته المشهودة.. ومن الذين كانت لهم رفقة بالمغفور له الشيخ زايد.. وقصائده تشكل ديواناً يؤرخ حقبة من تاريخ الإمارات حيث توفي عام ١٩٤٠.

نشأ سالم بن حم يتيماً حيث توفي والده وهو لم يزل طفلاً.. غير أن والدته أحسنت تربيته ونشأته.. غرست فيه الصبر والجلد والقدرة على تحمل الصعاب وقسوة الحياة.. بيئة قاسية لا ترحم وبلاد قفراء إلا من إيمان أهلها. ويقول بن حم عن طفولته وظروف نشأته:

«طفولتي لم تكن تختلف عن طفولة أقراني الذين نشؤوا وترعرعوا في ظل تلك الظروف البيئية والمعيشية الصعبة التي كانت تسود المنطقة آنذاك.. لم تكن هناك طفولة بالمعنى الصحيح فظروف الحياة بمعطياتها في ذلك الحين أضفت علينا منذ نعومة أظفارنا نوعاً من الخشونة والقدرة على التكيف والمثابرة والتحلي بقدر من الإرادة والعزيمة القوية وروح المبادرة والتحدي،

وجميعها في الواقع مــن المآثر التي أخذناها كجيل مــن آبائنــا وأجدادنــا الذيــن كانت حياتهم بطبيعة الحال أكثر صعوبة وقسوة. أما بالنســبة لترتيبي بين أفراد الأسرة فقد كنت الثاني، وتكبرني شــقيقتي موزة ـ رحمها الله ـ وقد توفيت عام ٢٠٠٦.. كنت شغوفاً إلى درجةٍ كبيرةٍ بقصص الشــجاعة والبطولة التي كنت أســمعها وأنا طفل عن أولئك الرجال الذين كانوا يدفعون حياتهم ثمناً للذود عن ديارهم وأهلهم».

للصحراء خصوصية بكل مفرداتها.. والنشأة في أجوائها تشكل مرتكزات أساسية في شخصية أبنائها.. وتحديد خياراتهم في شتى مناحي الحيــاة. يقول بن حم: الحيــاة التي عشــناها في مرحلتي الطفولة والشباب كان لها أثر بالغ في تكوين شخصيتي، ولا شك أن الوالــد والوالدة كان لهما الأثر الأكبر فــي ذلك، خاصة فيما يتعلق بتربيتنــا وتعويدنا كيفيــة التأقلم مع كل الظروف القاســية والصعبة والتحلي بقدرٍ كبير من الصبر والجلد وتحمل المسؤولية.. ولم تكن هناك على أيامنا هوايات وأنشطة بالمعنى ذاته، فالأعمال والاهتمامــات كانت تنحصر في ســبل العيش، حيــث تتركز جهود الجميع رجالاً ونســاءً وأطفــالاً على توفير قوت يومهــم.. وبالعودة إلى واقع الظروف المعيشــية والحياتية في تلك الحقبة من تاريخ

الإمارات، نرى أن خيارات العمل والنشـاط الإنسـاني كانت مقننة ومحدودة جداً، فكما هو معروف فإن التجمعات السـكانية القريبة من شاطئ البحر كانت أعمال الأهالي فيها وهم من البدو، ترتكز على تقطيع الأشـجار وجمع الأخشـاب وحرقهـا، لتتحول إلى فحم «سخام». ونقلها ثم بيعها لسكان الحضر، أما البدو الذين يسكنون في الصحراء بعيداً عن شـاطئ البحر فكانت أنشطتهم تتركز على تربية الإبل والأغنام التـي كانوا يأكلون لحومها ويشـربون حليبها ويبيعون بعضها ليشتروا بثمنها بعض مسـتلزماتهم الأخرى.. وفيما يتعلق بسـكان الحضر الذين يسكنون على شـاطئ البحر فلم تكن لهم أعمال سـوى الغوص بحثاً عن اللؤلؤ أو صيد السـمك.. وكان والدي يمارس الأعمال نفسها التي كان يمارسها سكان الصحراء.. وباسـتثناء الأعمال التقليدية التي مارسـناها مع آبائنا خلال تلك المرحلة الزمنية خاصة الاهتمام بالإبـل لم يتح لي أن أمارس أي أعمال أخرى في مرحلة الصبا والشباب.

في سـنوات الشباب تزوج سـالم بن حم وهو زواج لم يخرج كما يذكر عن نمط العادات والتقاليد التي كانت سائدة في تلك البيئة البدوية التي عاشـها، فالزواج تقليدي جداً وله طقوس في غاية البساطة، وأغلب الحالات كانت تتم بين أبناء وبنات القبيلة الواحدة. وزواجه لم يكـن بعيداً عن هذه التقاليـد.. وإن أولاده على التوالي: مسلم، محمد، حمد، مبارك، سهيل، عبد الله، سعيد.

يقول بن حم: لا شـــك أن الظـــروف الحياتيـــة الصعبة التي كابدناها في الســـابق تركت بصمات واضحة على سلوكياتنا حتى الآن، ورغـــم التحولات الجذريـــة التي طرأت علـــى كافة مناحي الحياة إلا أننا والحمد لله، ورثنا أبناءنا العديد من هذه التقاليد والســـلوكيات الحميدة، والتي تشكل في مجملها جانباً مما تعلمته وورثته عـــن رفيق عمري زايد رَحِمَهُ اللَّهُ، خاصة فيمـــا يتعلق بالعزيمة والتأقلم والتكيـــف مع كل الظروف والأحـــوال بالصبر والاحتمال والتحلي بطيب الخصال كالأمانة والكرم والشجاعة وحب الوطن.

إن خزين ذاكرة ســـالم بن حم يكتســـب أهمية تاريخية لها خصوصيتها.. إنه خزين وثائقي بكل صفحاته ومفرداته عن ماضٍ مضى وحاضـــر قائم متجدد متطـــور.. الماضي خالـــد والحاضر نتاجه.. آفاقه زاهرة.. وبناة مستقبل أجياله: عزيمة وإرادة تختزل الزمن.. وتحقق الأهداف.

حين يتحدث بن حم عن أصدقاء زمانه.. يقول:

«إذا كان قدري أن أكون مـــن أصحاب الحظ العظيم الـــذي ربطنـــي برفقة فقيـــد الوطن والأمة الشـــيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ منذ أيام الشـــباب، وتلك رفقة طويلـــة تخللها الكثير من الأحداث والمنعطفـــات التاريخيـــة والذكريات والآمال العريضـــة والطموحـــات التـــي حققهـــا هذا

القائــد الملهم بما تحلى به مــن رؤيةٍ ثاقبةٍ، وعزيمــة وإرادة صلبة وحكمــة بالغة، فكيف لي وقد خصني اللّه ﷻ بهــذه الرفقة العظيمة التي ســأظل أعتز وأفخر بها، أن أذكر ســواه من أصدقــاء زمان، وهم كثــر وأكن لهم كل التقدير والاحترام».

لقد كان المغفور له الشيخ زايد «يحب البدو.. وهم يحبونه.. يعرف تقاليدهم ويعشقها. وهذا الحب لحياة البدو وللصحراء.. جاء من خلال حكمه لمدينة العين والمنطقة الشــرقية ما يقرب من عشــرين عاماً.. هناك عاش مع البدو كواحــدٍ أصيل منهم.. يكاد يعرف كل الأفراد في كل قبيلة.. يحب حياتهم.. وأشعارهم.. وأمســياتهم.. وكان يســتعين بالقبائل في بناء المشروعات التي أقامها في العين.. وأهم تلك المشــروعات التي أقامها بمساعدة قبيلة العوامر الفلج الذي أقامه في العين.. في هذه الواحة تعيش قبيلة العوامر التي يحبها الشــيخ زايد رَحِمَهُ اللّهُ .. ويهوى أشــعارها.. وعاش معها ســنوات..» هذا ما ذكره راشــد عبــد اللّه في كتابه القيم المعنون: زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد.

وتجدر الإشــارة إلى أن فلج العين يُســمى بفلج الصاروج لكون قناته بُنيت بمــادة الصاروج وهي مادة كلســية محروقــة أقوى من الجص وأقل صلابة من النورة. وينبع من منطقة مراغ شرقي العين،

وهو من الأفلاج الكبيرة ويسـير تحت الأرض ضمـن قنوات كبيرة عليها عدد من الفتحات لتسـهيل عمليـة تنظيفِ ومراقبـةِ المياه، ثم تتفرع ضمن عوامد إسـمنتية بعرض قدميـن وارتفاع قدم لتقوم بسقاية النخيل والمزارع بمنطقة العين. هذا ما يذكره حمدي تمام في موسـوعته القيمة: موسـوعة زايد.. ولقد قام المغفور له الشيخ زايد بتطويره منذ نهاية الأربعينيات مـن القرن الماضي حين كان ممثلاً للحاكم في المنطقة الشرقية، ويقال: إن أعمال التطوير هذه دامت ثمانية عشر عاماً. وبأمر من المغفور له الشيخ زايد، أصبحت مياه هذا الفلج وكذلك مياه الأفلاج الأخرى مشاعة لعامة الناس.

إن مناخ وجغرافية الإمارات قد جعلا مصدر المياه الرئيسـي هو جوف الأرض.. وابتكر الإنسـان الذي عاش على أرضها أكثر من طريقة لاسـتغلال هذه المياه أهمها طريقتان رئيسـتان: هما البئـر والفلج. وتُطلق علـى البئر محلياً كلمة طـوي.. وهي كلمة فصيحة تعني البئر وخاصة البئر المبنيـة أو المطوية بالحجارة كما ويُطلق على القناة التي تُشـق في جوف الأرض لجلب المياه الكائنة علـى أعماق متفاوتة ومـن أماكن بعيـدة مصطلح فلج.. والفلج كلمة محليـة وهي عربية كذلك من أصلٍ سـامي ويقصد بها في بعض الأحيان الجدول الصغير أو النبع والكلمة تسـتعمل في الإمارات وسـلطنة عُمان وعموم منطقـة الخليج العربي. هذا ما أشـار إليه وليد ياسين في دراسته العلمية القيمة عن الأفلاج بدولة الإمارات، وهي دراسة آثارية في أنظمة الريِّ القديمة.

وجاء في دراسة علمية بعنوان: (العوامر: قبيلة متخصصة بحفر الآبار والأفلاج...)، أعدها جى.إس. بيركس وسالي. آى. ليتس، وجرى ترجمتها إلى العربية ونُشرت عام ١٩٨٢:

«إن حفر الآبار والأفلاج حرفة شاقة يكاد يحتكرها العوامر الذين يمتازون بمهارة خاصة.. الكثير من العوامر مشهورون بأنهم باصرون أي لديهم دراية بمعرفة مواقع الماء تحت الأرض، ومعدل نجاح العوامر في التبصر بالآبار عال.. إنَّ أبعد الباصرين صيتاً وأعظمهم مكانة هم عادة من تلك القبيلة. وتقوم شهرة العوامر الكبرى على حفر الأفلاج وتمديدها.. وإلى جانب مقدرتهم على العمل اليدوي، يتمتع العوامر بكفاءة في معرفة أمارات الينابيع تحت الأرض.. وفي توسيع واكتشاف مجاري الماء المعروفة تحت الأرض ليزيدوا جريان الماء إلى الفلج إلى الحد الأقصى.. إنَّ للعوامر كنوز من الخبرات بهذا الشأن».

والعوامر قبيلة كبيرة.. امتداداتها كثيرة.. تتميز ببنيتها البدوية، ولذلك فهي قبيلة متماسكة قرابياً بفروعها المختلفة.

هذا ما يذكره شـــاكر خصباك في كتابه القيم: «دولة الإمارات العربية المتحدة، دراســـة فـــي الجغرافيـــة الاجتماعية». ويذكر الرحالة ويلفرد ثيســـجر كيف أنَّ هذه القبيلـــة تكيفت مع حياة الرمال، وعاشـــت بعـــض فروعها فـــي الرمال الوســـطى، وهي المكان الوحيد في الربـــع الخالي الذي تتواجد فيه الآبار، وأنه كان عليه أن يمر في أراضيها خلال رحلته.. ويقدّم تفاصيل لها قيمتها التاريخية بهذا الصدد. وكان ثيسجر قد وصف في كتابه الشـــهير المعنون: «الرمال العربية»، رحلاته الاستكشافية بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٠ حول، وعبر الربـــع الخالي، تلك الصحراء التي تبلغ مســـاحتها نصف مليون ميل مربع، والتي تشكل واحدة من أقســـى صحاري العالم. ولم يســـبق لرحالة قبله ـ ما عدا البدو الذين يعيشـــون هناك ـ أن تجرأ علـــى عبور تلك الرمال الخاوية مرتين. وكان يرى أنها المكان الذي «يوفر راحة البال النادرة التي تأتي مع الوحدة، ووفاء البدو وســـط ظروف بالغة القسوة».

ويتوزع العوامر في عدد من دول المنطقة، وقد استقر العوامر الذين سكنوا عُمان حول نزوى وفي مناطق من مسقط والباطنة. ويذكر ســـمويل باريت مايلز الذي شغل منصب المعتمد السياسي والقنصل البريطاني فـــي عُمان عام ١٨٧٢، وتعرف عن كثب على أحوال المنطقة الداخليـــة وجمع معلومات دقيقة عن أهلها.. يذكر في كتابه المعنون: «الخليـــج بلدانه وقبائلـــه».. الذي صدر عام

١٩١٩: «أن البدو من هذه القبيلة يتجولون في الصحراء حتى ظفار.. ويشغل الجزء المستوطن من القبيلة اثنتي عشرة قرية بالقرب من نزوى.. ولها ثلاثون فخذاً».

وتُعدُّ قبيلة العوامر من القبائل الرئيسية في إمارة أبوظبي.. مكانتها معروفة لدى شيوخ آل نهيان.. وشجاعتها ومواقفها في تاريخ الإمارات مشهودة مؤرخة. وجاء في تقارير لمسؤولين بريطانيين منهم الكابتن تايلر وكيل المقيم البريطاني في العراق خلال القرن التاسع عشر، ومارتن بكماستر الذي كان مسؤولاً سياسياً في أبوظبي وقام برحلة أوائل عام ١٩٥٢ في بادية أبوظبي بصحبة المغفور له الشيخ زايد.. «أن العوامر من جند البوفلاح المتميزين بصدق الولاء والإخلاص..» وأشاروا إلى وقائع بهذا الخصوص.. «وأن سالم بن حم أحد أصدقاء زايد الشخصيين والقريبين منه». وجدير بالذكر أن مجلة ليوا قد نشرت في عددها الثالث عشر/يناير ٢٠٠٥ دراسة قيمة لعبد العزيز عبد الغني بعنوان: الخريطة القبلية لإمارة أبوظبي تناولت قصة وثيقة أعدها بكماستر بعد رحلته في بادية أبوظبي من منطقة البريمي إلى الختم ثم ليوا حتى بينونة وعبر البحر إلى الجزر المأهولة على ساحل أبوظبي. وأشار كلود موريس إلى هذه الرحلة في كتابه القيم: صقر الصحراء.. المغفور له الشيخ زايد.

وتنقســـم قبيلة العوامر إلى فخذين كبيريـــن هما: فخذ بدر.. وفخذ لـــز.. وأهم بطون فخذ بـــدر: آل حيو، آل كليلة، آل ســـلم، آل قيعـــال، الحلاطة، بيـــت العوينـــي، الحبانيـــن، المقاضة. أما فخذ لز فأهم بطونه: آل خميـــس، آل عمر، آل عصيد، آل مبارح، اليعافـــرة، آل حيثول، وآل شـــريف الذين يرجعون إلـــى آل كثير، ولكنهم يلتحقون بالعوامر. وتسكن قبيلة العوامر المناطق الجنوبية لأبوظبي وخاصة الختم والحمرة والكدن وأم الزمول وزراره والربع الخالي. كما تسكن أكثر جماعات العوامر في إمارة أبوظبي.

وبدو العوامر تشـــكيل قبلي بالغ التعقيـــد.. وقد تناولت هذا بتفصيل الكثير من المؤلفات والمعاجـــم التي تبحث في القبائل العربية وامتداداتها، إضافة إلى كتابات الرحالة الأجانب في هذا الخصوص.

ويقول الرحالة ثيســـجر وهـــو يصف وصولـــه للمويجعي في الخامس مـــن نوفمبر ١٩٤٨ ومكوثه فيها حتـــى ٢٨ يناير ١٩٤٩.. إن المغفور له الشيخ زايد أشـــار في حديث معه إلى أن للعوامر مخيـــم عند طرق الرمـــال.. وحيـــن زارها مرةً أخـــرى في إبريل ١٩٤٩، يذكر ثيســـجر أن للعوامر كلمة مســـموعة وهو يشير إلى ذلك من خلال واقعة حدثت آنذاك.

وجاء في تقرير لقيادة قوة ســـاحل عُمان.. أنه في ٢٤ يناير ١٩٥٥، تصـــدى ســـالم بن حم أحد رجـــال زايد لقافلـــة تهريب

للأسلحة والذخائر.. واضطر رجالها إلى الهرب. وتوجه بن حم إلى الشيخ زايد وأبلغه بما حدث.. وفي اليوم التالي ٢٥ يناير توجه الشيخ زايد إلى مسرح الواقعة واطَّلع على الأسلحة المهرَّبة وكمياتها، ومكث وبعض رجاله ليلة مع بن حم وأسنده بقوة من رجاله. وكانت المنطقة تشهد من حينٍ لآخر عمليات من هذا النوع بحكم امتداداتها وطبيعة تداخل حدودها.

إن رمال الصحراء تحكي تاريخاً صنعه رجالها.. وإن كتابات الرحالة الأجانب إضافة إلى تقارير المسؤولين البريطانيين في المنطقة تسهم في استقراء هذا الجانب أو ذاك مما حفلت به الأزمنة على تعاقبها.

يقول ثيسجر في كتابه: «الرمال العربية..: «إن سحر هذه الرحلة بالنسبة لي، لم يكن في مشاهدة هذه البلاد فقط، وإنما في مشاهدتها تحت هذه الظروف.. فالمشاق والأخطار اليومية والجوع والعطش والتعب من السير الطويل، تعكس الظروف القاسية لحياة البدو التي سعيت إلى التأقلم معها، فكان ذلك أساس الصحبة التي وحدتنا». ويكتب قائلاً: «تتجمع سحابة ويتساقط المطر فيعيش الناس.. وتتبدد الغيوم بلا مطر، فيموت أناس وحيوانات. ففي صحارى جنوب الجزيرة العربية لا يوجد نظام للفصول. فلا صعود ولا هبوط في النسغ، بل قفار خالية حيث تشير الحرارة المتغيرة وحدها إلى مرور السنين.

إنها أرض قاسية وجافة، لا تعرف شــيئاً عن اللطف أو الراحة، ومع ذلك عاش فيها أنــاس منذ أقدم العصور. أما الأجيال التي مضت، فقد تركت حجارة ســودتها النار فــي مواقع الخيام كما تركت بعض الآثــار للأقــدام المطبوعة على ســهول الحصباء. وفي أماكن أخرى، مســحت الرياح آثــار أقدامهم. يعيش الناس هناك لأنه العالم الذي وُلدوا فيه، والحياة التي يعيشــونها هي الحياة التي عاشها أســلافهم من قبلهم. فهم يتقبلون المشقات والحرمــان ولا يعرفون ســبيلاً آخر. ويقتبس مــن كتاب: أعمدة الحكمة السبعة.. قول لورنس: «كانت أساليب حياة البدو قاسية حتى بالنســبة إلى الذين نشــؤوا فيهــا، وفظيعة بالنســبة إلى الغرباء: موت في حياة».

ثم يتابع قائلاً فليس بقدرة أي إنسان أن يحيا هذه الحياة بدون أن يتغير. فإنه ســيتأثر، ولو بصورةٍ ضئيلةٍ، بالصحراء، وبســمات البدو، وســيبقى فيه الحنيــن للعودة، ضعيفاً كان أم قوياً، حســب طبيعته. فهذه الطبيعة القاســية بإمكانها أن تســحر المرء بصورة لا يســتطيع أي طقس معتدل أن يضاهيها.. ســأذكر علــى الدوام المناسبات التي أخجلني بها هؤلاء الذين امتلكوا الكرم والشجاعة والتحمل والصبر وكانوا إضافة إلى ذلك مثال الشهامة».

وتأسيســاً على ما تقدّم.. فإن الصحراء بحد ذاتها تكفي أن تضفي على نشــأة أبنائها ومراحل تكوينهم المتتابعة ما تستحقه

من المعاني بكل أبعادها. وتأخذ هذه المعاني صوراً أكثر إجلالاً حين ينتزع الرجال أدوارهم بكل ما تقتضيه الصحراء من مستلزمات الجلد والإرادة والعزيمة وما تمليه قيمها وتقاليدها وقوانينها.

وسالم بن حم يقول: تَعلمتُ من مدرسة المغفور له الشيخ زايد وهي مدرسة حياة بشتى صورها ودلالاتها وميادينها العملية وما تتميز به من خبرة صنعتها الحياة ذاتها. وهناك قول أنه «عندما يفكر الإنسان يكون». ونقتبس من كلود موريس مؤلف كتاب: صقر الصحراء.. قصة حياة الشيخ زايد.. قول الفيلسوف الفرنسي شارل فوربيه: «إن مستقبل العالم يتطور من عقل الإنسان فالناس الذين يفكرون تفكيراً إيجابياً ويعملون للخير يحققون الظروف التي يرغبونها». ويقول موريس: عندما كان زايد حاكماً محلياً أثبت أنه ديبلوماسي بارع، إذ نادراً ما أخطأت قدمه مهما تكن المناسبة ومهما يكن التحدي. وسجل ثيسجر عام ١٩٤٨ انطباعه عن الشيخ زايد بقوله: «ينم وجهه عن ذكاء شديد.. عيناه ثاقبتان. مزاجه هادئ رصين، قادر، ذو عزيمة. شهرته واسعة بين البدو الذين أحبوه لمعاملته السهلة غير الرسمية، ومودته، واحترموا فيه قوة شخصيته وفطنته وقوته الجسدية..». وعندما جاء عالم الآثار جفري بيبي لأول مرة إلى العين في العام ١٩٥٩، اجتمع إلى الشيخ زايد ثم وصفه في كتابه المعنون: «البحث عن

دلمون» قائلاً: «طويل رقيق عريض المنكبين، ســيماؤه بدوية حقيقية كأنه الصقر في توثبه.. لقد كان اســمه سحرياً، فهو قناص قوي، وصحراوي شهير».

تلك لمحات لها دلالاتها في كتابة التاريخ.. ماضياً وحاضراً ومســتقبلاً. وحين نســتقرئ الجذور تتداخل الأحــداث والصور.. ونشأة سالم بن حم كانت إحدى ملامحها.

ســالم بن حم في الصحراء كانت نشــأته.. ومدرســة زايد صقر الصحراء صنعته: صاغت شخصيته.. ورسمت مسار سنوات عمره.. بل هي كما يقول كل شيء في حياته.

الفصل الثاني

سالم بن حم
وذكريات الماضي القريب

سالم بن حم
وذكريات الماضي القريب

لقد عاصر سالم بن حم الزمن الصعب بكل تحدياته وقساوته.. وشهد قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وما حفلت به من تأسيس لمرتكزاتها وعلى شتى الصعد.. ومسيرتها الحضارية المستديمة الناهضة.

وفي الزمنين كانت ذكرياته مادة تاريخية وثائقية لها أهميتها وخصوصيتها ليس بحكم معاصرته لعقودٍ زمنية تمتد من ثلاثينيات القرن الماضي وحتى الوقت الحاضر فحسب، وإنما كان بن حم من الرجال الذين صنعتهم الحياة الصعبة، وأسهموا بصورة أو أخرى في مواجهتها وبكل ما شهدته من أحداث وتطورات متلاحقة متتابعة.. وقبل هذا كله بل في مقدمته وأساسياته، أن رفقته للمغفور له الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ، قد هيأت لسالم بن حم مساحة واسعة من خبرة وفراسة وحكمة المغفور له الشيخ زايد.. وهكذا كان ينهل من مدرسة زايد كل ما يعينه على اكتساب الخبرة الحياتية العملية بكل صورها وأبعادها.

وقبل استقراء ذكريات بن حم عن الماضي القريب، لا بد من تأمل صورة الإمارات بتاريخها وجغرافيتها.. لمحات تؤشر الحقائق.. والتطلعات.. والإرادة والعزم.

هلال غير خصيب يحتضن ساحل الخليج العربي، بيئة قاسية لا ترحم، فالأرض تغطيها الحصى والحصباء، وقد ترتفع هنا وهناك كثبان من الرمال عالية أو تمتد خلالها سبخات لا سبيل إلى سلوكها، ولم يكن الجو بأقل قسوة، فالهواء لاهب والمطر قليل ولكن السكان كانوا من أولي العزم فما وهنوا ولا استكانوا بل اتجهوا إلى البحر فوجدوا في سخاء مياهه ما عوضهم عن شح الأرض الجدبة، وراضوا أنفسهم على التعامل معه، يصطادون أسماكه وما أكثرها، ويغوصون فيه فيستخرجون منه اللؤلؤ حتى أصبح الغوص حرفتهم الرئيسية.

وفي الثاني من ديسمبر عام١٩٧١ شهدت المنطقة العربية ميلاد دولة جديدة هي دولة الإمارات العربية المتحدة إذ كان بقاء الإمارات على وضع التجزئة والتفكك لا يعني سوى مزيدٍ من التخلف والجمود، وهكذا ظهرت دولة عربية فتية قبل أن ينصرم ذلك العام، وأصبحت العضو الثامن عشر في جامعة الدول العربية.

وأخذت تلك الأرض المجدبة البخيلة التي تمتد عليها دولة الإمارات تشهد تغيراً واسع المدى شمل كل نواحي الحياة فيها

وحل شيئاً فشيئاً التنقيب عن الذهب الأسود محل البحث عن اللآلئ السوداء التي امتلأت بذكرها الأساطير، وبعد أن كان المرء يضنيه البحث عن شجرة خضراء يتفيأ ظلها، أصبحت ترى هنا وهناك غابة من الأشجار الحديدية حصادها البترول الغزير، ومع ظهور البترول تغيّرت الأوضاع وعم الرخاء وشعر بالرفاهية جميع المواطنين، فقد اتخذ المغفور له الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ، شعاراً له:

«إنني أحب أن أوزع الخير الذي رزقنا الله إياه على جميع أبناء الشعب، إنني أحب أن أوفر لأهل كل منطقة حاجياتهم من ماء صالح، ورعاية صحية، وتعليم لأبنائهم في القرى الجديدة التي ننشئها لهم حتى لا يهجر الأهالي مواطن الآباء والجدود، وحتى يحافظ الشعب على تقاليده العربية الأصيلة».

لقد جاءت الدولة الجديدة تصحيحاً لوضع شاذ بالغ الشذوذ.. التفتُّت الاعتباطي في الخريطة السياسية.. ونحن إزاء منطقة صحراوية شحت فيها الطبيعة السطحية شحّاً شديداً في معظم أجزائها، مع بعض الزراعة في ركنها الشمالي الشرقي وفي ساحل عُمان وفي واحاتها الصغيرة المتناثرة، مع ثروةٍ بحرية محدودة قوامها الأسماك واللؤلؤ في المنطقة الساحلية.

ثم بدأ استغلال البترول فتغيّرت الصورة تغيراً جذرياً. لقد أصلحت «الجيولوجية» ما أفسدته «الجغرافية» في مجال الموارد الطبيعية، وامتد ذلك إلى تقويم الخريطة السياسية بعد اعوجاج، إذ أبرز هذا المورد الطبيعي الخطير مقومات الوحدة في المنطقة، تلك المقومات الأصيلة المتأصلة.. إن مقومات الوحدة في منطقة الإمارات كانت قائمة قبل اكتشاف البترول واستغلاله، وإن مظاهر السطح لم تكن بأي حالٍ مما يعرقل الارتباط بين السكان.. تضاريس أعانت على الوصل لا على الفصل وكانت بذلك من عوامل الوحدة الجغرافية الأصيلة بين أبناء الإمارات.

ويجيء الموقع الجغرافي حقيقة طبيعية أخرى تعمل في الاتجاه نفسه وتضيف إليه مزيداً من القوة والرسوخ. فهي تقع في منطقة التقاء الخليج العربي وخليج عُمان الذي ينفتح على المحيط الهندي، وليس في بقعة نائية منعزلة شأن مناطق صحراوية أخرى في العالم. وقد انعكس هذا الموقع في نشاط السكان البحري منذ تاريخ قديم موغل في القدم، بكل ما يعنيه ذلك من انفتاح على العالم، ومعاملات تجارية وغير تجارية، واحتكاكات حضارية، وتنوع في التجربة، وحدث ذلك منذ وقت بعيد، فقبل الاتصال بالأوروبيين الذي بدأ في القرن السادس عشر للميلاد، كان لأهل الإمارات نشاطهم واتصالاتهم عبر الخليج العربي إلى المحيط الهندي ومن ورائه آسيا الموسمية

وسواحل إفريقية الشرقية، وكان لهم نصيبهم المعلوم في نشر الإسلام والثقافة العربية في تلك الأصقاع. وعلى الرغم من صعوبات الملاحة في سواحل الخليج بما يكتنفها من حواجز مرجانية، وجزر مغمورة تقترب قممها من سطح الماء، وألسنة رملية، وبقاع مستنقعية، فقد برع أهل الإمارات ـ كما برع إخوانهم في أقطار خليجية أخرى ـ في التغلب على تلك الصعوبات بما أتقنوه من صناعة أنواع خاصة من السفن تلائم تلك الظروف الجيمرفلوجية الخاصة بسواحلهم. وأصبحت لهم منذ وقت بعيد صناعة سفن مزدهرة جلبوا الأخشاب اللازمة لها من سواحل ملبار في الهند. وقد أشاد كثير من المؤلفين الأجانب بهذه الصناعة التي لا تخفى على المرء دلالتها الحضارية.

هكذا كان للموقع الجغرافي لمنطقة الإمارات ولسواحل الخليج العربي عامة، مغزاه الحضاري إذ خلق طائفة متنوعة من الاتصالات الاقتصادية وغير الاقتصادية بالعالم الخارجي منذ عهد بعيد، بكل ما يعنيه ذلك من اتساع في الأفق، وصقل للمعرفة بالأخذ والعطاء، ثم بكل ما يعنيه من وحدة التجربة التاريخية بين سكانها.

لقد أصبحت الإمارات تملك بفضل الاتحاد كل الظروف المواتية للتقدم والانطلاق. فقد جعل الاتحاد من هذه المنطقة دولة ناهضة بكل المقاييس وتثير إعجاب العالم بخطاها الحضارية

المتسارعة.. تتجلى فيها الوحدة الجغرافية، كما تملك الوحدة البشرية ومن ورائها الخلفية الحضارية ووحدة التجربة التاريخية.. دولة ذات مساحة معقولة تبلغ نحو ٨٣,٦٠٠ ألف كيلومتر مربع، وفوق ذلك كله فإن الدولة تملك قاعدة اقتصادية قوية قائمة على رؤية متوازنة تعتمد الحاضر والمستقبل معاً.. والتخطيط لأجيال الأزمنة التالية القادمة. وجاء في الدراسة العلمية القيمة والميدانية التي اعتمدناها في ما أشرنا إليه، والمعنونة: «دولة الإمارات العربية المتحدة.. دراسة مسحية».. التي نُشرت عام ١٩٧٨، وهي دراسة أعدها معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وبمساهمة صفوة مختارة من الباحثين العرب، ما نصه:

> «والخلاصة أن الخريطة العمرانية لدولة الإمارات قد شهدت تغيرات جذرية في السنوات الحديثة، والتغير مستمر، وبمعدل سرعة كبير، بحيث أصبح من ألزم الأمور لكل باحثٍ مدقق أن يتابع الصورة شهراً بشهر حتى يضمن العرض الصادق لمظاهر التغيير في تلك الخريطة».

لقد كان سالم بن حم من شهود العيان لصفحات مهمة من تاريخ الإمارات المعاصر، وذكرياته عن الماضي بمفرداته

المختلفة، تشكل مادة أصيلة تضيف وتعزِّز وتفسِّر ما جاء من صور عن هذا الجانب أو ذاك في بعض التآليف لرحالةٍ وباحثين.

لقد كتب رونالد كودراي في مقدمة كتابه: «وجوه من الإمارات»، الذي صدر لأول مرة في عام ٢٠٠١، والذي يُعدُّ سجلاً تاريخياً مهماً بعدسته للإمارات في منتصف القرن الماضي، والذي بدأ يعمل على إصداره بعد ٤٠ عاماً من ذلك التاريخ حتى وفاته في عام ٢٠٠٠، وكان قد جاء للعمل في الإمارات أواخر الأربعينيات، كتب قائلاً:

«يحق لشعب دولة الإمارات العربية المتحدة اليوم، مثل أي شعب آخر أن يفترض أن الطبيعة القاحلة والجرداء والموحشة أحياناً في بعض أنحاء الدولة، كانت كفيلة بجعل حياة البشرية التي نشأت فيها في الماضي حافلة بالصعوبة، فلم تكن البيئة القاسية تسمح لأغلبية الناس الذين عاشوا هنا، بالحصول على مستوى حياة يضمن لهم أكثر من الحد الأدنى من البقاء، ومما لا شك فيه أن هذه البيئة أثمرت مجتمعاً شديد الاستقلالية، فرض الدفاع عن الأسرة أو العشيرة أو القبيلة، ضد أي تهديد خارجي

لأمنه وممتلكاته الشحيحة. وأنتجت تلك البيئة رجال قبائل يدافعون بشدة عن استقلاليتهم، كما أنتجت أناساً محبين للسلام، سواء كانوا من سكان المواطن المستقرة أو البدو الرحل. وأدى التمسك المطلق لأولئك الناس بديانتهم وأعرافهم القاضية بالدفاع عن القبيلة، إلى نشوء نمط حياة يسوده النبل في أداء الواجب تجاه الذات والأهل وحتى المسافرين. وكانت أجسادهم النحيلة التي تخفي قوة جسدية مشهودة، تعكس حقيقة كونهم طبقة أرستقراطية من البدو الرحل، الذين هم في الحقيقة فرسان الرمال. وكان معظم أولئك الناس أميين مما أدى إلى اعتمادهم الشديد على الكلمة المنطوقة، وكانت ألسنتهم البديلة لأقلامهم وحلّت ذكرياتهم مكان مكتباتهم. وكان فن الكلمة المنطوقة يحظى بتقديرٍ كبير يرقى إلى الإعجاب الشديد، مما يسمح باحتلال الشعراء تلك المنزلة الرفيعة بينهم. وإذا تكوَّن لدى القارئ انطباع مفاده أن كلماتي هي مجرد كلمات صادرة عن رجل أجنبي ينسج قصصاً رومانسية عن أحوال شعب

ما، فلا يسعني سوى أن أنقل ما قاله زعيم بارز لهذا الشعب. ففي سياق استرجاع أيام الذكريات أيام الحرمان والجفاف والفقر وأحياناً الجوع، كان هذا الزعيم يحثُّ الذين يصغون إليه على التعلم من معاناة وصبر أسلافهم الذين تغلبوا على شظف الحياة، بقوله: «من يجهل ماضيه، لن يفهم حاضره، ولن يستعد لمواجهة المستقبل». لقد صدرت هذه الكلمات عن زعيم ذي أصول قبلية نبيلة، فهم حقيقة المعاناة التي عاشها شعبه في الأيام الخوالي، وعمل بشكل دؤوبٍ على نقله من تلك المرحلة الصعبة إلى مرحلة الازدهار والتطور في عصرنا الحالي، إنه المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان قائد مسيرة النهضة الشاملة».

وتأسيساً على ما تقدّم، تبرز أهمية الذاكرة التاريخية لصفحات ماضٍ حفيل بشتى الصور.. الشيخ سالم بن حم يعود بذاكرته إلى الوراء ليستعرض جانباً من ملامح الحياة ومقوماتها إبّان عقود مضت سبقت تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من ديسمبر عام ١٩٧١.

يقول بن حـم.. كان الاعتماد على النفـس، والتحلي بالصبر والجلـد والعزيمة وقوة الإرادة، من السـمات العامة لأبناء بادية الإمارات في سـنوات ما قبل النفط، حيث صعوبة الحياة وشظف العيش في ظل ظروف معيشـية ومناخية شديدة القسوة، ويصعب كثيراً على جيل اليوم أن يتخيلوا ماضينا الذي عشـناه، ويقدروا الظـروف والأحوال التي كان يعيشـها الآباء والأجـداد بكل جلد وصبر، مقارنة بما نعيشـه اليوم من أمن ورغـد العيش.. تغيّرت الأحوال كثيراً مـن حولنا من ضنك العيش إلـى الوفرة والخير والنعمـة، والفضل يعـود إلى اللّه ﷻ الـذي منَّ علينـا بـ«زايد الخير»، فمنذ أن عرفناه كان اسمه مطابقاً تماماً لأفعاله، وحتى لا نترك الصور والمشاهد تغيب عن أذهاننا وأذهان أبنائنا وجب التذكير؛ لأننا بالمقارنة نزيل اللبس وتتضح الأمور، فتتأكد بذلك أهمية المحافظة على المكتسـبات والثمـرات التي نجنيها وننعم بها اليوم، ويتأكد بذلك حب الانتماء إلى هذا الوطن المعطاء.

كان سـكننا عبارة عن بيـوت مصنوعة من سـعف النخيل أو بيوت الشعر في الصحراء، أما بيوت أبوظبي والعين فكانت عبارة عن خيام من جريد النخيل، والميسـورون مـن الناس والحكام الذين كانوا يسـكنون بالقرب من البحـر أو العين كانت لديهم بيوت مصنوعة من الطين، أما الآخـرون فبيوتهم كانت مصنوعة من سـعف النخيل، حيث يعمدون إلى شـق جذع النخلة الطويلة إلى شقين، ليجعلوا منها «سند معريض» على السقف.

أما لباسنا فكان يأتي من الخارج، بعضه من الهند، والبعض الآخر من بلدان أخرى، ويُباع في أسواق أبوظبي والعين، وهذه الألبسة «الكسوة» تأتي جاهزة من الخارج، حيث لم يكن لدينا من يصنعها.

وكان الرجال يلبسون «الوزار» و«العوقدية» ويستعملون «زرابيل» مصنوعة من صوف الغنم تلبس في الرجلين لاتقاء الحرارة والبرودة. ويرتدون «الغترة»، ولا يستعملون «العقال» الذي كان يرتديه الحكام خاصة في المناسبات وعند خروجهم واستقبالهم الضيوف.

أما الأطفال فكانوا يلبسون «كنادير»، والميسور من الناس يزيد ابنه «سفرة»، وعندما يبلغ الطفل سن الخامسة عشرة يلبس «الوزار» مع «الكندورة».

كثيرة هي المشاق التي عشناها، فقديماً لم تكن لدينا مدارس ولا مدرّسون ولا مستشفيات ولا أطباء، بل الشخص الوحيد الذي كان يقوم بهذه الأعمال هو إمام المسجد، فهو المدرّس الذي يعلّم الأبناء، ويحفظهم القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة، ويطلعهم على أمور دينهم ودنياهم، وهو كذلك الطبيب الذي يداوي مرضاه عن طريق قراءة القرآن الكريم، وأول مستشفى عرفناه هو مستشفى «كندي» الذي يُسمى الآن «الواحة» ويقع جنوب مدينة العين.

وبالنسبة للمواصلات.. لم تكن لدينا سيارات ولا شوارع معبدة، بل كانت وسائل النقل الخيول والجمال والحمير، ومن يعبر البحر كان يستخدم مركبه الشراعي، ولم نعرف في جيلنا من السيارات سوى أربع: الأولى عند المرحوم الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان، والثانية عند المرحوم الشيخ محمد بن خليفة آل نهيان، والثالثة عند المرحوم الشيخ هزاع بن سلطان آل نهيان، والرابعة عند المرحوم الشيخ زايد. ولم تكن هناك طرق إسفلتية معبدة، لذا كان الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ يأمر في بعض الأحيان بجلب أغصان الشجر، ووضعها على الطريق فوق الرمل حتى لا تنغرز السيارات في الرمل.

طعامنا كان بسيطاً، التمر وحليب النوق، فحياة البدو تعتمد على النخيل والجمال، وحياة أهل البحر تقوم على مركب الخشب وصيد السمك من البحر، وأكلتنا الرئيسية تعتمد على الأرز واللبن والتمر، وهي الزاد الرئيسي لنا، والبدوي الذي لا يملك الأرز أو التمر يعيش على حليب النوق، أما أهل البحر فيعتمدون على السمك والتمر والأرز.. والقهوة عادة قديمة تلتصق بنا نحن العرب، فهي عبارة عن الترحيب بالضيف وإنزاله منزلة عالية، ومن لا يقدّم القهوة إلى ضيفه في البداية كأنه لم يقدّم له أي شيء مهما فعل وقدّم من شرب وأكل، فالقهوة في عاداتنا هي «رأس» الضيافة.

مياه الشرب كنا نجلبها من الأفلاج مثل فلج الصاروج وغيره، أو حفر الآبار داخل البيوت، فلم تكن هناك حنفيات في بيوتنا، وعادة ما تكون المياه حلوة أو مالحة، وكانت مصادر المياه قليلة، وكان الماء يوزع بالحصة التي يمكن أن تُباع وتُشترى وتُحتكر من قِبَل الموسرين فقط من التجار والأغنياء، ولندرة الماء وما تسببه من مشكلات بين الأهالي، أولى الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ اهتماماً كبيراً بتوفير المياه للجميع، فبادر إلى عمل كل ما في وسعه لينساب الماء بوفرة، وبدأ بإصلاح الأفلاج القديمة المهملة، واهتم بحفر المزيد منها لتفي بالغرض المطلوب، وقد كان فلج الصاروج أولها، والذي تطلب حَفْره جهداً كبيراً لسنوات عديدة، حيث شارك المغفور له الشيخ زايد في حفر الفلج لكي يشجع من حوله على العمل بنشاط وهمة، وكان يرشد العاملين بأفكاره وتعليماته إلى المسار الصحيح للفلج، والحمد لله تكللت جهوده بالنجاح وجرت المياه غزيرة عبر الأفلاج لتسقي المزارع المختلفة.

وأولى الشيخ زايد نظام السقاية القديم اهتمامه فعمل على إصلاحه، وجعله للجميع بعد أن كان يقتصر على الأغنياء، وهذا بدافع الحب والعطف النابعين من قلبه لشعبه، كما دفعه كل هذا إلى إرساء مبدأ «الماء والكلأ لكل الناس»، وإنهاء «تجارة الماء» والقضاء على الاستغلال الذي كان يمارسه بعض الأغنياء وقتها، وقال: «إن مياه الأفلاج الآتية من جوف الأرض يجب أن

تكون من حق كل الناس الذين يعيشون فوق هذه الأرض»، ومن هنا هدأت القلوب وتحابَّ الناس وعمَّ الخير والإصلاح على يديه.

ونستقرئ بالإضافة إلى ما ذكره الشيخ سالم بن حم عن المياه وأفلاجها في العين التي هي حقاً لؤلؤة الصحراء البراقة.. ما جاء في الكتاب القيم: كنت شاهداً.. الإمارات من عام ١٩٦٠ إلى ١٩٧٤.. رحلة العبور من مشيخات متناثرة إلى دولة اتحادية متماسكة.. هذا الكتاب وهو من منشورات المجمع الثقافي في أبوظبي، مجموعة استطلاعات نشرتها مجلة العربي الكويتية.. وهي رحلات مهمة قام بها خلال تلك الفترة الصحفي القدير سليم زبال الذي زار العين في عامي ١٩٦١ و١٩٧١، وكتب قائلاً: وقصة الماء في العين هي قصة حياة.. فلولا مياه الأفلاج ما كانت «العين» ومزارعها ونخيلها، والأفلاج نظام فريد اخترعه الإنسان لاستخراج المياه الجوفية وتحويلها إلى مزارعه.. وموقع العين تحت ظلال جبل حفيت الذي تتجمع مياه أمطاره في طبقات صخرية عند قاعدته، جعل من السهل سحب مياه الفلج من قاعدة الجبل.. تُحفر البئر الرئيسة «الأم» بالقرب من هذه القاعدة، وبجانبها تُحفر آبار عدة بين الواحدة والأخرى نحو سبعة أمتار، ومن فوهات هذه الآبار ينزل الحفارون لشق قناة أفقية، تربط قاع كل بئر بقاع الآخر، بشكل انحداري تنساب فيه المياه لمسافة تصل أحياناً إلى ٢٣ كيلومتراً حيث المزارع والبساتين. وهذه الأفلاج لها قصص مثيرة، تختلط

فيها الأساطير بالحقائق، فهي تكاد تكون إعجازاً في هذه المنطقة الصخرية النائية عن كل مظاهر الحضارة الحديثة. ومن الأقوال التي كانت شائعة إن هذه الأفلاج حُفرت في عهد سليمان الحكيم، الذي سيطر على الجان فسخرهم لحفر هذه القنوات!! وعندما ذكرنا هذا الكلام للشيخ خليفة بن زايد ممثل الحاكم في العين ضحك طويلاً، وقال لنا: «سنأخذكم لتروا الجن وهم يعملون..!» وسارت بنا السيارة تقطع أرضاً صحراوية تغطيها أشجار السمر التي تتغذى الأغنام والجمال على أوراقها في الشتاء، حتى وصلنا إلى مخيم صغير مساكنه مصنوعة من سعف النخيل وجذوع أشجار السمر، ووجدنا على بابه رجلاً مهيباً قدم لنا نفسه بقوله: «سلطان بن حامد بن مرشد العامري زميل زايد»، وبعد أن شرح له مرافقنا الغرض من رحلتنا وما سمعناه عن حفاري الأفلاج، استغرق في ضحك طويل، وقال ضاحكاً: يعني إحنا أصلنا جن؟ فقلت: هكذا يقولون فهل يمكن أن نعرف حقيقتكم؟. فقال: «نحن فرع من قبيلة العوامر، نعمل في حفر الأفلاج منذ أجدادنا، ننزل إلى عمق ١٤ باعاً تحت سطح الأرض (الباع هو طول ما بين مد الذراعين مستقيمتين) ونحفر الآبار في الأرض الصخرية بالشاكوش والمسمار، كما كان يفعل أجدادنا، وفي أعماق الأرض نوصل هذه الآبار بعضها ببعض بوساطة قنوات». قلت: وكيف يمكنكم معرفة اتجاه الحفر ومقدار انخفاض الأرض؟ هل عندكم أوراق وخرائط؟ فقال

متعجباً: خرائط؟! أي خرائط تقصـــد؟ إننا قوم لا نعرف الكتابة ولا القراءة.. ولمعرفة اتجاه القنوات الأرضية نتبع صدى أصوات الدق والحفر التي نسمعها من مسافة ١٣ باعاً.

وعندما كان المغفور له الشيخ زايد حاكماً على مدينة العين وجه اهتماماً كبيراً بهـذه الأفلاج، فأمر بإزالة الرمال المتراكمة فوق عين «أم الســخنة»، وفــي مايو ١٩٦٩ عادت المياه تنســاب منه، واستبدل اسمه ليصبح «فلج زايد».

وقد شــارك المغفور له الشــيخ زايد في حفر بعض الأفلاج بنفســه، كما أمر بإنشــاء فلج العين وهو أكبر الأفلاج، واستمر العمل فيه ١٨ عاماً متواصلة، ويبلغ طولــه ١٥ كيلومتراً، وتجري مياهــه على عمــق ٢٢ متــراً وتقوم بتغذيتــه ميــاه ١٩٨ بئراً تم حفرها.. وهكذا أصبح بالإمكان ريّ المزارع مرة كل ١٢ يوماً بعد أن كان كل ٣٥ يوماً. كذلــك تم مد ٨٦ ألف قدم من قنوات ماء جديدة، كل هذه المشروعات ضاعفت مساحة المنطقة المزروعة في الواحة».

ويقول بن حــم: وقد اشــتهرت العين قديماً بزراعة أشــجار النخيــل الوارفــة، وبوجــود أفــلاج الميــاه القديمــة مثــل فلج «الصــاروج»، و«الجيمي»، و«القطــارة»، و«الهيلي» وغيرها. كما كانت منطقة العين تُعدُّ بالنسبة للجوار الاستراحة الأفضل، حيث يلجأ إليها الناس للاستظلال تحت أشــجار «اللومي» المتداخلة

بين أشجار النخيل هرباً من حرارة الشمس الملتهبة في المناطق الصحراوية.

أما أعمالنا في الماضي فإنها لم تكن متشعبة، بل كانت بسيطة واعتيادية وعلى نمط واحد سواء للبدوي أو الحضري، فالبدوي الذي كان يسكن قريباً من البحر كانت أعماله تتركز على جلب الحطب و«السخام» وبيعه للحضري، أما البدوي الذي يسكن الصحراء بعيداً عن البحر فأهم أعماله تربية الإبل والأغنام ليشرب من حليبها أو يبيع منها ويشتري حاجاته من السوق أو يأكل من لحمها، وبالنسبة للحضري الذي يسكن ساحل البحر لم تكن لديه أعمال سوى الغوص بحثاً عن اللؤلؤ في فترة تمتد لثلاثة أشهر خلال فصل الصيف أو صيد السمك، وثروتنا الحقيقية كانت هي النخلة ومن كان له نخيل كان له مال، هذا إلى جانب الماشية من إبل وأغنام، والتي كنا ننتقل بها من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والمرعى الذي كان يعتمد أساساً على بعض الأشجار مثل «الغاف» و«السمر» و«المرخ» و«السلم» وغيرها، وعند نزول المطر تنبت بعض الأشجار مثل «الزهر» و«القطب»، إلا أنها تجف في الصيف عند اشتداد الحرارة ولا يكاد يمر موسم الشتاء حتى نخرج مع زايد للقنص، وفي البداية كنا نمتطي الجمال ثم بعد ذلك صرنا نركب السيارات لنقطع مسافات طويلة للقنص.

وكانت رحلة الصيد بالصقور تضم مجموعة من الرجال لا تزيد على ستين شخصاً ولا تقل عن عشرة أشخاص، وتكون الرحلة طويلة أحياناً تصل إلى أسبوع أو أكثر، ويكون ضمن هؤلاء الرجال الحاكم والتاجر الكبير ومنهم أيضاً الرجل العادي يجمع بينهم حب الهواية والألفة والرغبة في التمتع بالقنص، يأكلون من طعام واحد، ويتحركون معاً في كل مكان، وهذا الاختلاط يتيح لكل فرد من أفراد المجموعة أن يتكلم بما يريد ويعبّر عن أفكاره وخواطره دون تكلُّف أو قيود، ورحلة القنص إلى جانب عامل الترفيه تعد فرصة للحاكم كي يتعرف على أحوال الرعية ويتدبر الأمور، فيتاح للمسؤول أن يتعرف على رغبات شعبه، ويدرك ما يجول في نفوسهم ويقف على حقيقة آرائهم، فيحيط بها ويبادر إلى إصلاح شأن الناس عن دراية وفهم وعن معرفة صادقة وعميقة بأحوال الناس.

وكان المغفور له الشيخ زايد يرى أن رياضة الصيد بالصقور تعود الإنسان على الصبر والجلد والموازنة بين معايشة البر وحياة المدن وهذا من شأنه أن يغذي الإنسان بطاقة بديلة تعطيه دافعاً كبيراً لاستيعاب العمل وما يتضمنه من واجبات جسام، كما أن رحلات القنص فرصة حقيقية لاختبار معادن الرجال وطباعهم، وتمكن الإنسان من التحلي بخصال طيبة هي من آداب الصيد بالصقور، مثل عدم صيد الحيوان الذي يلجأ للإنسان من شدة العطش أو الجوع، وكذلك الصيد لا يكون إلا بعد مطاردة

الفريسة، هذا إلى جانب روح الألفة والانسجام بين أفراد المجموعة حينما يقومون بإهداء لحم الصيد لبعضهم لبعض.

وفي أحد الأيام خرج المغفور له الشيخ زايد وكنا رفقة معه للصيد بالبندقية فاصطاد عدداً كبيراً من الظباء فتبيّن له أنه إذا ما تواصلت عادة الصيد بالبندقية فسيؤدي ذلك إلى انقراض عدد كبير من الحيوانات وهو الأمر الذي يرفضه دائماً، باعتباره رجل بيئة من الدرجة الأولى.

الحديث عن الصيد يشدنا للحديث عن الصيادين، ونسأل الشيخ سالم عن أحسن الصيادين الذين عرفهم.. فيجيب الرجل وفوراً: «إنه زايد بن سلطان، خير من رمى، وأشد من طارد، كنا نخرج للصيد في جبل حفيت في رمضان، والقيظ شديد والعطش أشد، فكنا نتوقف من الإرهاق إلا هو، فكان يركب فرسه ويطارد الظباء دون أن يظهر عليه التعب».

> «وسوالف الصيد مع زايد لا تنتهي، إنها رفقة عمر طيبة، من يوم استويت وحزت العقل وأنا أخٌ له.. ناصر ورفيق، وأسير في مأموريته على اللي يلزمه، وشهود أهل الوطن كلهم، يوم الناس تلعب عليهم بالأطماع، وضيع مستواهم، يشهد عليّ الله ومن عقب خلقه.. في الأوطان ثابتين، وأن نسير له بالصدق والمحبة...».

أما عالم الركاب «الجمال»، والطيور «الصقور»، التي وَلِهَ بن حم بحبها، وينتمي لها، فإن خبرته بها تشكل وصفاً دقيقاً يتجلى في قوله:

الركاب فيهن فرق، فيهن اللي تركض، وفيهن اللي تصبر على الجوع كود، فيهن اللي تعجز عن حمل الواحد ساعة، وفيهن اللي تحمل الاثنين ثلاثين يوم.. إن عالم الركاب كعالم الإنسان فيه وفيه، وأحسنها العُمانيات والحزامى، والأهم هو الفعل يوم تصير بالميدان وينطلق الرجال، بانت الطيبة من الردية، إن صارت لي الردية عجيتها ودورت غيرها، فالناقة على شكلها ترتهن، والناقة الطيبة كانت وما زالت مصدر فخر واعتزاز لصاحبها، ويعترف له بالركاب الحلوة. ويوم تسير تبغي نضر بالعدو، تفضل أصائل الركاب، وتقسم الصفوف وفق قوة الركاب وأصالتها وقدرتها، وصاحب الناقة الزينة يتصدر للمكان المشرف، وتسير للميدان وحين وصلنا نوخنا الركاب ليبدأ صراع الرجال.. وأنا أحب كل شيء أصيل وبالذات في الركاب، الناقة الجميلة منظرها يسرني ويشرح صدري كالعروس الجميلة سوية. أما الطير، فهو كالفوارس من الرجال، فيه وفيه، في فارس ما يجدر لواحد، وفارس ما يجدر عليه عشرة، وأشهر الطير الحر والشاهين، أما الحر فهو أكثر شوف وفيه النادر وفيه الضعيف، أما الشاهين فأسرع وأيضاً فيه نادر وفيه ضعيف، وصاحب الطير النادر، هو صاحب حظ كبير، فللطير معزة كبيرة في قلوب أهل

القنص، ويوم يغيب «يضيع» الطير النادر يكون يوم حزن، نشعر كأن أحدنا غاب.. والطير يغيب لأسباب كثيرة ولكن أوضحها أن يشعر بالشبع.

وفي إطار ما يتحدث به سالم بن حم.. نقرأ ما يقوله ثيسجر في مؤلفه: الرمال العربية.. عدنا إلى المويجعي ووصلناها يوم ١٤ ديسمبر ١٩٤٨.. بعد العشاء، كانت الغرفة مزدحمة بأتباع الشيخ زايد، وبعضهم يحمل صقوراً على معاصمهم. كنت أعلم أن تدريب الصقر البري في إنجلترا يستغرق خمسين يوماً، لكن العرب يدربونه في غضون أسبوعين أو ثلاثة، وذلك لأنهم لا يفارقونه على الإطلاق. إن الرجل الذي يدرب صقراً يحمله معه في كل مكان، إلى درجة أنه يتناول معه الطعام وهو يجثم على معصمه الأيسر، وينام معه وهو جاثم على وتد (الوكر) إلى جانب رأسه، وكان يتلمسه دائماً ويحادثه ويضع الغطاء على رأسه ثم يكشفه.

بعد قليل دخل الشيخ زايد، ووقف الجميع، وبعد أن جلسنا وقدموا القهوة للشيخ زايد، قال أحد رجال بني ياس «يا زايد، رأيت حبارتين هذا الأسبوع على مقربة من أبو سمرة». وقال آخر: «شاهدت ثلاث حباري الأسبوع الماضي». والحباري طيور بحجم أنثى الديك الرومي تصل إلى الجزيرة العربية آتية من بلاد فارس والعراق وسوريا في الشتاء ويغادر معظمها في الربيع والقليل منها يبيض هنا.

وقد أخبرني الشيخ زايد أن رجاله عثروا على ثلاثة أعشاش العام الماضي. ثم سأل عن الصقور، فقال له أحدهم: «سيرسل الشيخ هزَّاع صقرين آخرين أمسكوهما الأسبوع الماضي، ويجب أن يصلوا غداً». ويتم أسر الصقور عادة على الساحل في مثل هذا الوقت أثناء عبورها.. لقد كان الشيخ زايد يحتاج إلى بعض الصقور الأخرى قبل أن يذهب للصيد، وقال: «حسناً.. سنذهب إلى الصيد بعد أربعة أيام إن شاء الله»، ثم التفت إليّ وقال: «يجب أن تذهب معي» فوافقت شاكراً لأنني كنت دائماً أتشوق للصيد بواسطة الصقور.

منذ الصباح انشغل الشيخ زايد بتفقد الأمتعة والحبال والقرب الجلدية، ووجه أتباعه بتأمين الطعام الذي يجب أن يشتروه من السوق المحلي، والنياق التي يجب أن يحضروها من المراعي، ثم قام بتفقد صقوره، وقال: إن أحدهم يبدو متوعكاً ويجب أن يُعطي شربة مسهلة من السكر وأوصى بإطعام آخر بيضة مخلوطة بالحليب. وراقب صقراً يتم تدريبه على الطُّعم. وكان قد تم أسره قبل عشرة أيام فقط، لكن الجميع أكدوا أنه سيكون جاهزاً كي نأخذه معنا. وفي وقتٍ لاحق وصل ثلاثة من العرب مع الصقرين اللذين أرسلهما الشيخ هزَّاع، وكان أحدهما لا يزال مغلق العينين. كانت قطعة من القطن قد خيطت بجفنيه الأسفلين ورُبطت في أعلى رأسه، فأصبح لا يستطيع رؤية شيء. وعندما بدأ يأكل طلب الشيخ زايد أن يرفعوا الغطاء عن رأسه.

أما الصقر الآخر فإن الريشة التي تساعده على الطيران كانت مكسورة، وقام الشيخ زايد بتجبيرها بواسطة شريحتين من قرن الغزال. ثم وسم الطيرين بعلامته على منقاريهما.

بعد أربعة أيام قال الشيخ زايد سوف ننطلق هذا المساء، وأتوقع أن نقضي حوالي الشهر، وسنصطاد في الرمال إلى الشمال الغربي من هنا حيث تتوفر المراعي وآبار المياه، ويقول البدو: إن هناك الكثير من الحباري.. في عصر ذلك اليوم، غادرنا الحصن ومررنا بأشجار النخيل. وكان الشيخ زايد قد أرسل نياق الأمتعة قبل انطلاقنا مع أوامر بنصب الخيام عند طرف الرمال، ومشت جمالنا خبباً عبر سهل الحصى برفقة خمسة وعشرين من أتباع الشيخ زايد البدو، وكان بعضهم يحملون الصقور على معاصمهم، وأنشدوا «التغرود»، وهي أهزوجة المسير التي يسوق البدو جمالهم على إيقاعها خبباً. لقد كانت معنوياتهم عالية، إذ إنهم ينتظرون موسم القنص بالصقور مثلما ينتظر الإسكتلنديون بدء موسم صيد طيور الطيهوج.

وصلنا إلى المخيم مع غروب الشمس، وكانت الكثبان قد صارت قاتمة قبالة سماء متوهجة، والسحب العالية تبدو كالبخار المتصاعد. فجمع الخدم الشجيرات وكدسوها ضد اتجاه الريح فيما كانت نار كبيرة تشتعل وراءها. وبعد قليل تجمعنا حولها لنتدفأ من هواء الليل القارس، ثم ارتشفنا القهوة. وفيما

الضربـات الإيقاعية على جـرن القهوة النحاسـي تدعو الجميع للاقتراب، كانت عائلة بدوية قـد انضمت إلينا، ثم بدأت نياقها تتقدم نحونا عبر الرمل وخلفها صبيان بشعرهما الأشعث الطويل. وتم ذبح عنزتين ثم قطعتا، فيما كان الأرز يطهى في دست على نار هادئـة. وبعد قليل قدم الصبيـان، وكان أحدهما يحمل وعاء من الحليب تعلوه الرغوة وقدّمه إلى الشـيخ زايد قبل أن يجلس في حلقتنا للعشـاء، وأخبرنا الصبيان أنهما عثرا على آثار خمس حباري حول البئر.. كما وجدا آثـاراً عمرها يومين لحبارة أخرى فـي الرمال القريبة. فالتفت الشـيخ زايد نحوي وقال: إن شـاء الله سنأكل لحم الحباري غداً. في اليوم التالي استيقظنا باكراً، وأحضر أحدهم النياق إلى جانب النار التي جلسـنا حولها نتلفع عباءاتنا لأن الطقس كان لا يزال بارداً جداً، وناداني الشيخ زايد ليسألني عما إذا كنت أود امتطاء «غزالة». فوافقت بكل حماس.. قال: «لم تركب فـي حياتك ناقة كهذه، فقلت لـه: إنني ركبتها عندما ذهبت إلى الشارقة في الربيع الماضي».

وبينما كانت الشـمس ترتفـع حملنا بنادقنا وعصـي النياق استعداداً للركوب، ورفع الصقارون الشواهين الثمانية عن الأوتاد التي كانت جاثمة عليهـا، وكانت مبللة من النـدى الكثيف، ثم نادوا على الكلاب السلوقية الثلاثة. ووقفنا خلف نياقنا، والتفت الشيخ زايد حوله ليرى ما إذا كنت جاهزاً، ثم وضع ركبته على ظهر الناقة، ووقفت ناقته على الفور وانطلقنا في الرمال.

كنا نتوقع أن نجد الحباري على المنبسطات بين الكثبان وليس على الكثبان ذاتها، فمشينا مع النياق نتفحص الأرض بحثاً عن آثار الحباري، وكنت أتوقع أن يكون الصمت مخيماً على الجميع أثناء ذلك، لكن كان عليّ أن أعلم من الخبرة أن البدوي لا يمكن أن يظل ساكتاً، فكان كل واحد يتحدث بصوت مرتفع، وأخذ كل متخلف عنا يعدو بناقته للحاق بنا وهو يهزج على مزاجه. وفجأة أشار لنا عربي كان على جهة اليسار بأنه عثر على آثار حباري جديدة، وعندما استدرنا نحوه ظهرت واحدة على بعد أربعمائة ياردة تقريباً وكانت الخطوط البيضاء بادية على جناحيها بوضوح قبالة الرمل الأحمر. ونزع أحد الصقارين الغطاء عن رأس صقره وأطلقه في الهواء. كان يطير على ارتفاع بضعة أقدام عن الأرض وكانت الحبارة ترتفع، لكن الشاهين كان أسرع منها فأدركها. كانا يبدوان كنقطتين صغيرتين يصعب تمييزهما، ثم اختفيتا عن أبصارنا. وصرخ أحدهم: «لقد وقعت»، فرحنا نتسابق عبر الرمال.

وفيما كنا ننحدر من على سطوح الكثبان ونصعد من الحُفَرِ ونعدو عبر المنبسطات، أدركتُ أنني كنت أمتطي ناقة ممتازة جداً، إذ كنت مستوياً على ظهرها تماماً. وكان الصقارون إلى جانبي يحملون صقورهم على معاصمهم ممسكين بقيودها.. وصلنا إلى الصقر في إحدى الحُفَرِ، وهو ينتف الحبارة. فنزل أحد الرجال من على ظهر ناقته وشقَّ رأس الحبارة وقدّم نخاعها إلى الصقر، ثم كوّم الرمل على الجثة لإخفائها. وأعاد الصقر

إلى مجثمه، ونزلنا جميعاً عن نياقتنا، وأشار الشيخ زايد إلى بعض البقع الزيتية على الأرض وقال: «هل ترى هذا الوسخ؟ إن الحباري تزرقه على مهاجمها، فإذا دخل عين الصقر فإنه يصيبه بالعمى مؤقتًا، وإذا وقع على ريشه فإنه يوسخه تماماً، ولا يمكن استخدام الصقر مرة أخرى في ذلك اليوم».. وسألت: «كم حبارة يستطيع الصقر أن يصطاد في اليوم الواحد؟ فقال: يمكن للطير الجيد أن يصطاد ثماني أو تسع حباري، ولكنه يصطاد سبع حباري وهي تطير مقابل أربع حباري على الأرض.. هل ترى أين تقاتلا؟، وأشار إلى خط الريش بطول خمسة وعشرين ياردة عبر الرمال يمكن أن ترى ضراوة القتال بينهما، ويمكن للحبارة في بعض الأحيان أن تفقد الصقر وعيه بضربة من جناحيها.

وواصلنا المسيرة ثانية، وقمنا بمفاجأة حبارة من حفرة في الرمال هبطت على الأرض حالما أدركها الشاهين الذي انقض عليها مرتين، ثم هبط إلى جانبها، وقفز عليها محاولاً الإمساك بها بمخلبيه، ففرشت ذيلها وضربت الصقر بجناحيها، ثم وصلت الكلاب السلوقية وساعدت الصقر على قتلها لأنها عندما ترى أن الصقر بدأ يصيبه الوهن تركض مسرعة وراءه، ثم طرد الصقر الكلاب. وعندما وصلنا، كانت الكلاب جاثمة إلى جانب الحبرية الميتة والصقر يمزقها... اصطدنا حبارتين أخريين وبعض الأرانب البرية، قبل أن يتوقف الشيخ زايد لتناول الغداء. وقد سمعت أن الشواهين البرية لا تصطاد الأرانب، ومع ذلك

يرى العرب أنه من الأسهل استخدام الشاهين المدرب حديثاً لصيد الأرانب البرية وليس لصيد الحباري. وعادة ما يقوم الكلب السلوقي بالإمساك بالأرنب البري، لكني خلال الأسابيع الثلاثة التالية رأيت الشاهين أكثر من مرة يطير نحو أرنب بري تطارده الكلاب.. وبينما كنا نُعدُّ الخبز ونشوي حبارتين بدفنهما مع ريشهما في الرماد الساخن. حلق غراب ينعق فوق المكان. فقال الشيخ زايد: «سوف نرى إذا كان الشاهين سيقتله، ففي السنة الماضية قتل أحد الشواهين التي كانت عندي غرابًا». لكن الشاهين الذي أطلق لم ينقض سوى مرات قليلة وغير فعالة على الغراب الذي كان يواجهه بسهولة بالدوران على ظهره.

وبعد تناول الغداء واصلنا المسير وبعد قليل اكتشفنا حبارة على بعد خمسين ياردة، لكن الشاهين الذي رفع الشيخ زايد الغطاء عن رأسه، رفض أن يطير. نظر الشيخ زايد إلى أعلى وأشار إلى أربعة نسور تطير عالية فوقنا. وقال: «إنه خائف منها». وبعد قليل جفّلنا حبارة أخرى وطار الشاهين هذه المرة وعاد في الحال إلى الشيخ زايد وارتطم على صدره بينما كان أحد النسور ينقض عليه محدثاً صفيراً عالياً كصوت قنبلة تخترق الهواء. وعجبت كيف أن النسر لاحق الشاهين وتجاهل الحبارة. فقال الشيخ زايد وهو يتلمس الطير الخائف: «لقد نجا بأعجوبة، وكان محظوظاً لأنه لم يدرك الحبارة.. وعلى كل حال يجب أن نتابع المسير.. لا فائدة من البقاء هنا، وتلك النسور تحلق فوق رؤوسنا».

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، رأينا ثماني حباري تطير من أحد الوديان بين الرمال ثم تحط على الأرض. واتجهنا نحوها ببطء وصمت لأول مرة بعد أن ربطنا الكلاب. كان أحد الصقور مكشوف الرأس وبدا أنه رأى الحباري على الأرض، لكنه بعد انطلاقه أخفق في العثور عليها، مع أنه طار ذهاباً وإياباً على ارتفاع منخفض. ثم تم استرداده، وفيما نحن نتقدم طارت حبارتان معاً على بعد مائتي ياردة من أمامنا، فأُطلق صقر آخر وأدرك إحداهما وأنزلها إلى الأرض وقتلها. وفيما بقينا في مكاننا ذهب صاحب الصقر وأحضرها. كانت الحباري الأخرى على مقربة منا، وتمكنا من تحديد مكانها واحدة واحدة وقمنا بتطييرها وتركنا الكلاب تطاردها. وفيما كانت تهبط على الأرض كانت الكلاب تصل إليها فتطير ثانية، إلى أن بدت أنها مصممة على التفوق على الشواهين، فحلقت في دائرة كبيرة والشاهين ينقض عليها وهي تتملص منه. لقد كانت الحباري تطير ببطء وترفرف بأجنحتها من دون استعجال. وكان واضحاً أن الشاهين يطير بأقصى سرعته. وبينما مرّت الحبارة فوق رؤوسنا انقض الشاهين عليها لآخر مرة وأخطأها، ثم طار إلى الأعلى ونزل بسرعة إلينا.

بعد حلول الظلام عدنا نحو المخيم نهزج ونغني ونحن نشعر بالتعب الشديد والبرد القارص، لكننا كنا راضين بحصيلة اليوم الأول. وجلسنا حول النار نتحدث عن صيد يوم آخر. وبينما كنت مستلقياً فيما بعد تحت النجوم اللامعة أستمع إلى رغاء النياق

المتواصل كنت أشعر بسعادة غامرة لأننا نصطاد الطيور بالصقور وفقاً للطرق التقليدية، وليس بواسطة السيارات كما يفعلون في نجد هذه الأيام.

ويقول سالم بن حم: الصيد انقرض في البلاد.. كان القنص في الماضي متوفر، من المقطع وطالع كان يوجد الظبي، والأرنب، والحباري، وكنا نصيد بالطير والكلاب، وكان كل صياد لا يتعنى في البحث عن طريدة، أما اليوم فإن الأمر قد تغيّر، كثر الصيادون وقل الصيد.. وكان ظهور السيارات يعني هروب الأرنب والظبي فأصبح نادراً.

وعن نظام الحكم الذي كان سائداً في المنطقة آنذاك يقول الشيخ سالم بن حم: لكل قبيلة في البادية شيخها الذي يتولى رعايتها، ويتدبر أمورها، ولا سلطان عليه من شيوخ القبائل الأخرى، وكان شيوخ القبائل يتخذون قراراتهم بعد مشورة كبار القبيلة، وأصحاب الرأي فيها، ولا يصدرون أحكامهم بالسجن على المخطئين والمعتدين، بل يأخذون الحق من المخطئ ويردونه إلى أصحابه.

ويقول الشيخ بن حم: إن الأهالي في الفترة التي سبقت قدوم المغفور له الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ لم يعرفوا الثروة التي تمثلت في الأعمال والخدمات الجليلة التي قدّمها، وعمّت الخيرات القريب والبعيد، حيث بات الجميع ينعمون بالأمن والأمان في ظل أعماله الخيرة وعدالته وإصلاحاته.

وعن ذكرياته الرمضانية، تحدث بن حم عن أجواء الماضي وما تميّزت به من تآلف وتكافل اجتماعي فقال: بمجرد أن يهل هذا الشهر الكريم نستشعر حلاوة غير معهودة، أيامنا وأوقاتنا تختلف عن بقية الأيام، كنا نقوم بإعداد موائد الإفطار التي يجتمع حولها الأهل والغرباء، وكل مار من الطريق لم يكن يحمل هم الإفطار ولا ينتظر الدعوة، لأنها دعوة عامة على الخير، ويستمر هذا طوال شهر رمضان الكريم.. ويقبل المصلون على المساجد لصلاة التراويح، ويتسابق الجيران المحيطون بالمسجد في إرسال الموائد إلى المساجد لتتقوى الصلة وتنتشر الفرحة وينقسم الأجر بين السامع والتالي للقرآن الكريم.

أما المجالس الرمضانية فكانت جزءًا من النهج الأصيل للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي كان يعتبر نفسه رب الأسرة الكبيرة لأبناء الإمارات، وهي حوار حي يجسد العادات والتقاليد الأصيلة لمجتمع الإمارات، وما زلنا حتى الآن نقيم مجلساً رمضانياً كل عام ندعو إليه عدداً من الشخصيات الوطنية.. إن هذه المجالس تعكس تعاليم الدين الإسلامي الذي يدعو إلى تدعيم أواصر الأخوة والمحبة وروح التراحم والبرِّ والتكافل بين أفراد المجتمع. ويجب علينا جميعاً ترسيخ هذه العادات والتقاليد في نفوس الأبناء وإرشادهم وتوجيههم لحضور المجالس الرمضانية، نظراً لخصوصيتها التي تستمدها من نفحات هذا الشهر الكريم، وأيضاً لدورها في مواجهة ما

طرأ على المجتمع من تغيرات بسبب الرفاهية ووسائل الاتصالات الحديثة التي أثرت بالسلب على العلاقات بين أفراد المجتمع. وعن «الفوالة» أو المأدبة التي يدعى إليها رواد المجلس الرمضاني بعد مرور وقت على صلاة التراويح ودلالات هذه المأدبة ومكوناتها من الأكلات وما إذا كانت تختلف كثيراً عنها أيام زمان، يقول الشيخ سالم بن حم: نظراً لطبيعة الحياة القاسية في الماضي كان هناك نوع من الندرة في الطعام والزاد عند بعض الناس وبشكل عام كان الطعام في الماضي لا يختلف كثيراً عمَّا هو عليه الآن حيث تضم المائدة في الغالب اللحم بالرز والهريس الذي يتألف من القمح واللحم بالإضافة إلى الثريد والبلاليط والعصيد واللقيمات التي تُعدُّ من الأكلات المحلية القديمة التي تتصدر المائدة في رمضان حتى الآن ويلتف الأهل والأصدقاء والجيران حول موائد الطعام في شهر رمضان وهذا يُعدُّ من العادات والتقاليد الأصيلة التي يحرص عليها أبناء الإمارات.

ولقد تعلمنا الكثير من مجالس الشيوخ، وهذه المجالس في رمضان وغير رمضان تزرع الحب والخير والنماء في ربوع الوطن.. إن هذا النهج الأصيل كرّسه المغفور له الشيخ زايد رب الأُسرة الكبيرة لأبناء الإمارات. وإن التغيّرات المتلاحقة التي حدثت لم تغيّر من عادات وتقاليد أبناء الإمارات الأصيلة.

أما مناسبة العيد، فإنها كانت رغم بساطتها، تلف الجميع بفرحة كبيرة، تبدو آثارها على وجوه الكبار والصغار دون تفرقة أو تمييز. وكانت مظاهر التآلف والتواصل تتضح بصورة كبيرة، حيث كان الجميع يتبادلون الأطعمة والهدايا، وكان الجار يعطف على جاره ويحرص على أن يشعره بفرحة العيد حتى بما يملكه مما زاد عن حاجته من الملابس والذهب التي يعود بها على أهل جاره ليلبسوها في هذه المناسبة.

ولقد كان الناس يصنعون من هذه المناسبة فرصة للقاء والتجمع وسط أجواء من البساطة والصفاء الروحي والنفسي، ومما كان يزيد من فرحتنا مشاركة الحاكم لنا فرحة العيد وتبادل التهاني وإقامة الاحتفالات الشعبية كالعيالة وركوب الخيل والعرضة.

وكان المغفور له الشيخ زايد يؤكد على أهمية تناقل حوادث الماضي بكل واقعية، وعلى تجسيد الماضي لأبنائنا، كان يردد علينا دائماً: «إن الشباب لا يعرفون الذي مرَّ علينا وشعرنا به ولمسناه ولمسنا كربه.. فإذا لم نكلمهم اليوم وإذا لم نُتِحْ لهم الفرصة بين ذويهم وأهليهم فيتكلمون معهم ويخبرونهم عن الماضي.. فمن يفعل ذلك؟

والجميع يتذكر مقولة الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أريد منكم مزيداً من التقدير للماضي، ومزيداً من الذكريات؛ لأن من لا يذكر

ماضيه لا يعمل لحاضره، والمزيد من التحدث عن الماضي يجعل أبناءنا يقدرون الحاضر ويستعدون للمستقبل.

يقول بن حم: لا تصدقوا من يقول لكم: إن الماضي كان بشعاً، عذاباً صرفاً، لكل أيام حلاوتها، وإن كان الخير هذه الأيام وفيراً، فإن لأيام الماضي خيرها، وكل وقت وله مميزاته، أهل البحر عندهم اللؤلؤ، وعندهم سمك وأهل تجارة وأهل سفر. وأهل الحضر، اللي عنده نخيل يبيع التمر ويزرع الأرض، وحياته حلوة ومرتاح فيها.

وأهل البادية: عندهم الجمال، وعندهم الغنم، ويبيعون من الجمال والغنم، مرتاحين، إذا جاهم الضيف، اللي عنده غنم ذبح غنم، أو ذبح ولد ناقة، ويتاجرون بالركاب، ويشترون التمر والكساء.. يعني حياتنا السابقة كانت حلوة، والكلام اللي نسمعه يقول: إن أهل ابوظبي كانت شاه تغذيهم كلام ما له معنى، واللي يقول: الماضي كله شين «مو بصحيح».. كل زمان له ميزاته.

أما عن تقاليد القتال في تلك الأيام، يقول سالم بن حم.. إن الموت واحد والحرب أمر صعب، والإقدام عليها ليس بالأمر البسيط أيضاً، حتى ولو كانت حرب عشائر، إن نية الحرب واحدة، سواء بين أكبر الدول أو أصغر العشائر، لأن الموت واحد سواء لواحد أو لألف، بالخنجر أو بالمدفع، فعندما تقول الحرب فأنت أمام الموت، والموت في كل الحالات هو الموت. وحروبنا في

السابق كانت تدور في رحاب هذه الربوع التي فيها خلقنا، ورأينا النور، وحملنا السلاح.. فأنت لا تعادي إلا من يمكنك الوصول إليه، ولا يعاديك إلا من يستطيع أن يصل إليك.. وفي ذاك الزمان كانت حدود الاستطاعة محدودة، وكل الحوادث شهدتها الجزيرة. وكانت هذه المعارك تستمر شهراً أو شهرين أو سنة، ثم يتم الصلح ويأخذ كل طرف على الآخر عهد اللّه، ويدفن الماضي سواء كان سببه خطأ بسيط أو ذبح.. فما دام عهد اللّه بيننا فلا شر يقوم، اللهم إلا إذا وقعت أحداث أخرى، ويرى أحد أطراف الصلح أنه القتال ولا بديل، فإنه يذهب للعشيرة التي أضرّت به ويرد عليهم «البرا»، وهذا بمثابة إعلان للحرب، وبعد رد البرا بأسبوع فإن القتال يصبح مشروعاً. فتعد الركاب والسلاح، وتبدأ المواقع، والتي تستغرق أسبوعين للخروج ومثلهما للعودة قد تزيد وقد تقل.

ويقول بن حم عن السلاح المستخدم في ذلك الزمان: لحقنا على العثماني، وأمات عشر وميزر، والألماني، وأم تاين وهلنا لحقوا على السيوف، أيام جدودنا، أما نحن فعرفنا البارود.. وكان الطفل منا يشب وعينه معلقة بالبندقية ومحزمها.

ويستذكر سالم بن حم أول مرة حمل فيها السلاح، فيقول: كان هذا في مطلع شبابي الباكر، كانت الشعيرات الأولى في شاربي وذقني تطل خفيفة على وجهي، وكنت أتمتع بقوة في النظر أحمد اللّه عليها، وذات مرة كنت مع الشيخ طحنون بن محمد،

ومجموعة من رفاقه، وقالوا لي: إنني كبرت على السلاح.. وإن نظري لم يعد مثل الأول، فقلت لهم: «لا واللّه البصر بنعمة والحمد للّه».. فأحضروا لي هدفاً صغيراً جداً ووضعوه على أبعد مرمى، وفعلاً رفعت الهولندية وصوبتها في نصف الهدف تماماً، وكانت والحمد للّه. والهولندية بندقية معروفة من أمات خمس.. وقد اشتريناها عندما كنت أنا والمرحوم الشيخ سعيد بن شخبوط في زيارة إلى لندن.. وما زالت عندي.

أذكر ذات مرة في قتال، وكان الجو قيظاً، بدأ الرمي، وكان الرصاص ينهمر كالسيل، بحيث كانت الإبل تضطر كي تتلافاها أن تتعرج برقابها كالثعابين، كانت خطوط الرصاص تمرق بجوارنا وأزيزها يخرق الآذان، واضطررنا للتوقف حيث استترتُ خلف شجرة، واستمر الضرب، ويومها شبت النار في تلك الشجرة من شدة النار والرصاص، ورغم كل ذلك يشاء اللّه أن أخرج سليماً معافى.. نعم.. «الرصاص مجدر».

الحرب تستلزم الذكاء، ويجب تلافي أضرارها قدر الإمكان، وهذا يحتاج لاستعمال العقل أو الحيلة كما نسميها نحن، والسياسة كما تقولون أنتم.

خلال الضرب، وبعد الرصاصة الأولى تتملك الرجل منا حمية ينسى فيها الخطر، ولكن الحكيم لا ينسى الحذر.. إذ أقل لفتة تعني الهلاك. والمحارب بعد موقعة واثنتين يولد فيه حسٌّ قوي

يجعله يشعر بالخطر ويتفاداه، بالغريزة، ولكن وبرغم ذلك فإن «الرصاص مجدر» إنه قدر، ولولا ذلك لما كنت أنا الآن جالس أمامك، أحكي لك سوالفي، نعم إنه القدر لا غير هو الذي يحدد نصيبك، حياتك وموتك، من يصدق أن إنساناً يعيش في قلب الخطر أربعين عاماً لم يصب مرة، إنها رحمة اللّٰه ﷻ وإرادته.

ذات يوم، في ذاك الزمان، كنت وحيداً في الصحراء، بعيداً عن الديار، وجاءني من يقول: إن جماعة «شايلين سلاح، وشايلين زان ـ رصاص ـ» وهم في طريقهم الآن إليّ يقصدون الإيقاع بي.. فما العمل وأنا وحدي، ويستحيل عليّ الاتصال بأهلي.. شكرتُ الرجل وصرفته، وبدأ رأسي يدور، وأنا أفكر وأتدبر لمواجهة موقف يعني الموت.. نظرتُ في المكان حولي، فرأيتُ مكاناً أشبه بجبل يصلح للاختفاء.. وهناك انتظرتُ.. وانتظار الموت أصعب منه والصحراء والوحدة ولا شيء سوى الأنفاس ودقات القلب، ويظهر في الأفق شبح ثمانية رجال بالزان والسلاح، صبرتُ حتى اقتربوا، وصحتُ عليهم من مخبئي:

ـ عندكم يا عرب.

ـ من هناك؟

ـ سالم بن حم.

ـ نبغاك.

ـ أنا فوقكم، وربعي محاوطين بكم من كافة النواحي، وأنتم ضايعين مالكم مهرب.

ـ ما نبغي شر.

ـ زين خليكم مكانكم، وأرسلوا لي واحد منكم، نرى ما يصير من أمركم.

الموقف صعـب.. وكلمات الرجل تحـارب جماعة بهذا العدد والعدة، والحياة وما أغلاها مرهونة بأعصاب يجب أن تكون من صخور الجبل، رنة خوف في الصوت تكشـف كل ستائر الذكاء. يقدم الرجل على سالم الذي يلعب بكل عمره، الرجل الذي تحول من صياد إلى فريسة، جاء يفاوض محاولاً الإخلاص من عنكبوت الوهم نصبه خصم يقاتل بالخيال الفطـري المؤمن بأن الحرب خدعة. هنا يقول سـالم: «ياني كبيرهم، تلزمت معاه بعهد اللّه، ما يصير عليهم شـر، رقابهم وركابهم في ويهي.. شرط يسلموني سـلاحهم جميع».. وذهب الرجل ليعود بالسـلاح مـن الرجال، ليسيروا في حمايتي.

ما خلق إنسان ما يخاف، ومن يقول غير ذلك غلطان، ولكن الظروف تحدك على طرق تشـجعك، والخوف ليس جبناً، ولكن الجبان من يستسلم لمخاوفه، ولحظة الروع مرعبة ولكن التغلب على الخوف انتصـار يعيش في القلب ويذكـره الناس.. وفي كل مرة تواجـه الخطر وتتصور الموت يركض نحـوك، تخاف.. وأنا واجهتُ الموت والخوف كثيـراً ولكن الإيمان باللّه وبأن كل مقدر يكون، جعلني مستعداً لمواجهة أمر اللّه.

وحين يقترب الشيخ سالم بن حم في ذاكرته عن مدينة العين من منتصف الأربعينيات.. يقول كيف إن الأحوال في مجملها بدأت تتجاوز ما كانت عليه من تدهور وبخاصة الحالة الاجتماعية والاقتصادية.. بل إن تحولاً مهماً قد شهدته العين بتولي المغفور له الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ المسؤولية عام ١٩٤٦ ممثلاً للحاكم في المنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي.

لقد كنا لا نعرف طعم الهناء.. الهناء عرفناه مع زايد.. بابه في قلعة المويجعي مفتوح للجميع.. يفضون إليه بكل ما يختلج في صدورهم من معاناة وآمال وطموحات.. ويعبّرون عن رأيهم دون خوف أو تردد؛ إنه الشعور بالأمان.. الجميع شعروا بأمان كبير معه، وأنه واحد منهم وحريص عليهم، يتألم لألمهم، ويفرح لأفراحهم، ويتفانى في مد يد العون للجميع دون كللٍ أو ملل، حتى إن كثيراً من الرحالة وصفوا الشيخ زايد برب أسرة كبيرة يجلس دائماً للاستماع إلى مشاكل الناس ويقوم بحلها.. ويخرج من مجلسه المتخاصمون بهدوء وكلهم رضا بأحكامه التي تتميز بالذكاء والحكمة والعدل.

وبهذا الخصوص نستقرئ أيضاً ما ذكره الرحالة البريطاني ويلفرد ثيسجر في كتابه: الرمال العربية، حيث التقى في إبريل ١٩٤٨ المغفور له الشيخ زايد، في المويجعي، القرية التي كان يعيش فيها الشيخ زايد، وكتب قائلاً:

كان رجلاً قوي البنية جداً، يبلغ من العمر حوالي ثلاثين عاماً، وجهه ينمُّ عن الذكاء، وعيناه ثاقبتان يقظتان، شخص هادئ قادر، ذو عزيمة. كنت أتطلع إلى اللقاء به، فلقد كان يتمتع بشهرة واسعة بين البدو الذين أحبوه لأسلوبه السهل وغير الرسمي في معاملته لهم، ومودته، واحترموا قوة شخصيته وفطنته.. وشهرته في عدالته.

يقول بن حم.. وكان زايد في كثير من سلوكه وأفعاله يوحي للمقربين له، أنه على شبه كبير من جدّه زايد بن خليفة، مما جعل عمه المرحوم الشاعر محمد بن حم، وهو واحد ممن عاشروا زايد بن خليفة، يقول شعراً في المغفور له الشيخ زايد، وهو شاب لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وتبدو عليه علامات الزعامة المبكرة، إذ قال:

هزري على زايد يشابه جده
رغيب لي سد العرب ما سده
يسلم زبينه والطليب يرده
ولي معاصي يبشره بالشده
وزايد عليهم بالكرم والمده

وإن التاريخ أثبت صدق فراسة الشاعر، إذ إن زايد لم يكتف

بمشـابهة جده زايد الكبير فحسـب، بل تجاوز ذلك إلى خصال وصفات قل أن توجد كلها في شخص رجل واحد.

ويضيف الشـيخ سـالم بن حم: وُلـد زايد داخـل مجتمع محافظ لم تضطره ظروفه القاسـية إلى الجزع أو اليأس، بل خلقت تلـك الظروف في نفوس الناس حـب المقاومة والصبر والتجلد مـن أجل البقاء وإثبات الكيـان، محافظين في الوقت ذاته على ذلك الرصيد الهائل الذي خلفه الأجداد من تقاليد وقيم ومثل عليا.

وقـد أمضى زايد وقتـاً من طفولتـه في قصـر الحصن في أبوظبي، ثم انتقل من أبوظبي إلى واحة العين التي كانت موقعاً اسـتراتيجياً لتجمعات البدو والحضر وخاصـة في فصل الصيف هروباً من رطوبة البحر، والقيظ الشديد، كما كانت سوقاً كبيرة لتبادل شـتى أنواع البضائع مـع تجار الإمارات الشـمالية. وفي العين أمضى الشيخ زايد وقتاً طويلاً من شبابه.

إضافة إلى ما ذكره بن حم، جاء في الاستطلاع الذي قامت به مجلة العربي الكويتية في مدينة العين في أوائل الستينيات:

وما كدنا ننتهي من اسـتطلاع قطاع أبوظبي البحري المطلّ على الخليج العربـي، حتى اتجهنا إلى قطاعهـا الثاني الداخلي الصحراوي، حيث تختبئ لؤلؤته البراقة: العين.

حاولوا عبثاً إقناعنا بأن الطريق إلى العين هو طريق العذاب والصعاب، مؤكدين كلامهم بأن رحلة الذهاب على ظهور «المطايا» الجمال من أبوظبي إلى العين تستغرق ستة أيام بلياليها!.. وهذه الرحلات من أبوظبي إلى العين كانت تقوم بها العائلات في مطلع صيف كل سنة. فما تكاد بشائر الصيف تلوح حتى تخضع أبوظبي لحالة استنفار شاملة.. الآلاف من شبابها ورجالها يبدؤون استعداداتهم للتوجه إلى مغاصات اللؤلؤ يمضون ثلاثة شهور في عرض البحر في أعماقه بحثاً عن اللؤلؤ المنشود.

وفي الوقت نفسه تزدحم الأسواق بالنساء والشيوخ والأطفال، كلهم جاؤوا لشراء احتياجاتهم من قهوة وسكر وأرز وطحين وسمك مملح وجاف وتوابل، استعداداً لقيامهم برحلة الاستجمام الصيفية المعتادة إلى مزارع العين، هرباً من مناخ أبوظبي الحار، ورطوبتها الخانقة، فوسائل الحماية من لهيب الصيف لم تكن متوفرة بعد في أبوظبي.

تبدأ الرحلة باستئجار «المطايا» كل عائلة تستأجر ما بين عشرة إلى عشرين جملاً لركوب النساء والأطفال وحمل ما معهم من مفروشات ومعدات ومؤن وغذاء.. كانت القافلة تنطلق على الطريق المتعرج الطويل (١٦٠ كيلومتراً) تقف خلاله خمس مرات للنوم والمبيت في العراء، منتظرة قافلة من نوع آخر، كانت تلحقها قافلة الأغنام الخاصة بالعائلة التي تتأخر في السير

عن قافلة الجمال.. وعنـد الوصول إلى العين كان البعض يمتلك مزارع هناك تقيم فيها العائلة طوال الشـهور الثلاثة.. والبعض الآخر كان يسـتأجر «العرشـان» الأكواخ من المزارعين، ومعها يستأجر عدة أشـجار من أنواع النخيل التي يختارها، كل شجرة إيجارهـا روبيتان، للاسـتفادة مـن ثمارها طوال شـهور الإقامة في المزرعة.. وعلى الطريق نفسـها التي سـلكها «الحضار» أي المصطافـون انطلقنـا داخل سـيارة اللاندروڤر.. فلـم يكن في خاطرنا منافسة «ويلفرد ثيسـجر» آخر الرحالة الذي وصل إلى العين متربعاً على ظهر جمـل.. كان عنده الوقت الكافي لتمضية شـهور طويلة في رحلاته، أما اسـتطلاعاتنا فكانت محددة بأيام قليلة متسارعة!

عبرنا جسـر المقطع الحجري الذي يفصـل جزيرة أبوظبي عن اليابسـة، متجهين جنوبـاً على طريق رملـي غريب في تنوع تضاريسه من مستنقع مليء برشح مياه البحر، إلى خط رفيع من أرض طينية، تحدها رمال ناعمة خطرة على الجانبين، إلى سهل رملي منبسط، تنمو فيه أعشاب الهرم التي يتناولها البدو لعلاج أوجاع المعدة.

وكلمـا تقدمنا في المسـير كانت الكثبـان الرملية الصفراء تتحول إلى رمال حمراء، لا أثر فيها لإنسان أو حيوان، وبعد قليل بدأت الأعشاب في الظهور مع بعض أشـجار السمر، إنها بمثابة

الإعلان عن الوصول بعد رحلة استغرقت ثماني ساعات، داخل عربة صغيرة تتأرجح على التلال والكثبان.

إن موقع العين المنعزل وسط رمال الصحراء.. يجعلها المكان الوحيد المأهول في دائرة قطرها مئة كيلومتر تقريباً. وعلى الخارطة أحصينا خمس طرق للقوافل تتجه إليها: من نزوى، وداخلية عُمان، وأبوظبي، وقطر، والسعودية.. كلها تتجه نحو هذه الواحة وهي ليست واحة واحدة بل عدة واحات أو قرى مختلفة تتجمع على هيئة مثلث قاعدته ستة كيلومترات وارتفاعه عشرة.. وكل واحة منها تحمل اسماً مختلفاً، منها: العين ـ الجيمي ـ القطارة ـ المعترض ـ المويجعي ـ هيلي.. وهي ليست قرى بالمعنى المفهوم بل بليدات متفرقة، منازلها مبنية من الطين، تفصل بينها كثبان رملية عامرة بالنخيل وأشجار السمر الصحراوي.

كان البدوي يتجه إلى «العين» على رأس قافلة من الجمال، تحمل أكواماً من الأعشاب الجافة التي جمعها من الصحراء. وما تكاد قافلته تظهر عند مشارف الواحة حتى يتسارع إليها الرجال، كل منهم يريد شراء حمولة قافلته، وفي النهاية يبيعها بسعر لا يتجاوز ٤٢ روبية لحمولة عشرة جمال (١٣,٤ روبية = جنيه استرليني) آنذاك. ويأخذ البدوي هذه الروبيات الهندية، وهي العملة المتداولة حينذاك، ويتجه ناحية السوق تحت أشجار القرط

والسدر، فيشتري نصف سمكة مجففة، آتية من شاطئ عُمان، بروبية واحدة.. ورطلاً من اللحم بروبيتين ونصف ثم يتجه إلى السوق المبني من الطين، والمسقوف بسعف النخيل، فيقابل زميلاً له أيسر حالاً منه جاء مع حمار محمل بخمسين من «الغليون» التمباك، فيسيران معاً يعرضان البضاعة على أكثر من تاجر، حتى يبيعا الربطات الخمسين، بخمسين روبية.. فيشتري هذا الزميل «الثري» الشاي والقهوة والتمر والأرز، ودهن الياسمين (عطر محلي)، والبلاليط (وهي الشعرية) وعلب صلصة الطماطم، ونعلاً من الجلد لسيدة الأُسرة.. بعد ذلك يتجهان إلى بائع الصواني الخشبية، والأقمشة فيشتريان قطعتين من القماش لزوجتيهما.

وعند بائع البرتقال تبدأ مجادلة حول السعر، ولكن البائع يتمسك بسعره ويرفض أن يبيعهما بأقل من روبية لكل ثلاث برتقالات.. فيتركانه وينضمان إلى حلقة كبيرة من الناس ملتفين حول مجموعة من الجمال المعروضة للبيع بالمزاد، فيجلسان يستمعان إلى «الدلال» وهو يعدد مزايا الجمل المعروض، ثم يبدأ المزاد، فترتفع الأصوات.. هذا بخمسين روبية، وذاك بستين، وأخيراً يرسو المزاد على أحدهم بتسعين روبية.. وليس هذا السعر هو ثمن كل جمل، فقد بيع أحد الجمال الأصيلة بمبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة روبية أي ٢٦٢ جنيهاً استرلينياً، هكذا قالوا لنا! والأصالة في الجمل تحتم انحداره من سلالة معروفة يحفظ البدوي أسماءها المتعددة: مصيحان، عرجان.. ولا بدّ

أن يكون أنثى، أي ناقة، خفيفة الحركة، سريعة العدو، صدرها واسع وفخذها ملآن، ورقبتها طويلة، ورأسها متوسط الحجم، وأسنانها سدسا (أي عمرها ٦ سنوات)، وخصرها ضيق ضامر، وكانت هناك علاقة خاصة بين البدوي وجماله، يرتاح لراحتها ويتألم لآلامها.. وعندما يذهب للحج كان يمتطيها ٢٥ يوماً كاملة لتوصله من العين إلى مكة المكرّمة.. كان يشرب حليبها لأوجاع المعدة، وبولها لعلاج السكري.. وكانت لسباقات الهجن تقاليدها وعاداتها في العين.. الآباء يدربون أولادهم الصغار على ركوب نياق السباق حتى يكون حملها خفيفاً.

وبشأن ما أشرنا إليه، يقول سالم بن حم: إن من اهتمامات المغفور له الشيخ زايد رحمه الله، كان تنشيط الحركة التجارية في العين فبادر إلى بعث سوق تجارية لإنعاش حركة البيع والشراء وتوفير السلع للمواطنين.

كما شهدت العين إصلاحات وإنجازات عديدة.. والإنجازات تلد الإنجازات.. هكذا يصف بن حم ما شهده آنذاك، ويقول: إن هذا جعل العديد ممن عايشوه يرون فيه رجل الإصلاح الأوحد الذي سيرسم له المستقبل آفاقاً أرحب، ومسؤوليات جساماً تتعدى حدود مدينة العين.

يقول بن حم: إن ما أنجزه المغفور له الشيخ زايد حين كان ممثلاً للحاكم في مدينة العين، لم يكن لأحد غيره أن يحققه

بنفس تلــك الإمكانيات المحدودة جــداً.. وتلك الظروف الصعبة التي كانت تضطره أحياناً إلى حــد التداين لينفق على الآخرين المعوزين بعد اســتنفاد أمواله الخاصة.. كل ذلك حتى يرفه عن الناس وينهض بمدينة العين.

وجاء في الاستطلاع الذي قام به سليم زبال في العين مطالع الســتينيات.. وهو أول صحفي زار الإمارات وكتــب عنها قبل أن يتفجر البترول من تحت رمالها وبحارها.. ما نصه:

«كان الشــيخ زايد شــاباً عندما عيــن ممثلاً لأخيه في منطقة العين.. وقــد أمضى الكثير من زمانــه في عصر مــا قبل النفــط حاكماً على هــذه المنطقــة (١٩٤٦ - ١٩٦٦). المال كان شحيحاً.. والمشــاريع كثيرة.. وطموحات زايد كبيرة.. كان في حاجة ماســة إلى المال لتحقيق أحلامه فلم يجد حرجاً في الاقتراض من تجــار العين ليقيم أول مدرســة.. ويوحد القبائل.. ويحل مشــاكل الحدود.. ويضاعف مساحة الأرض المزروعة بإقامة مشاريع الري وحفر وإصلاح الآبار والأفلاج..».

يذكر ســالم بن حم وهو يســتذكر تلك الأيــام.. فيقول: إن المغفور له الشــيخ زايــد أولى العلــم اهتمامه البالــغ وتوفيره

للجميع يقيناً منه كما يقول: «العلم بصر ونور يهدي الإنسان إلى الطريق السوي ويقود الأُمم إلى العزِّ والمجدِ». وبدأ بتأسيس «المدرسة النهيانية» عام ١٩٥٩ ومن ثم تبعتها مدارس أخرى كان زايد يوليها وقتاً كبيراً من اهتمامه فيزورها للاطمئنان على سير أنشطتها، ولتشجيع الطلاب وحثّهم على طلب العلم الذي يبني العقول وينيرها ويرشدها إلى الطريق السوي مذكراً إياهم في كل مرة أن مستقبل هذه المنطقة في أمس الحاجة إلى أبنائها الذين سيرفعون من شأنها متى تزودوا بسلاح العلم والمعرفة.

وجاء في الدراسة المسحية عن الإمارات التي قام بها معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

> «كذلك اهتم الشيخ زايد بإدخال التعليم في واحة العين منذ عام ١٩٥٩ حينما أسس المدرسة النهيانية الابتدائية وبذلك سبق أبوظبي في إدخال التعليم إذ لم تؤسس مدارس نظامية في أبوظبي إلا منذ عام ١٩٦٢..».

كان تعليم الأولاد تقليدياً عند «المطوع» مقابل خمس بيزات تدفع كل خميس فسُميت «خميسية».. وعند ختم القرآن الكريم كان المطوع يركب حماره ويجوب «الفريج» الحي السكني مع

تلاميذه يجمع الحبوب والنقود التي يجود بها الأهالي.. هكذا يصف الحال سليم زبال في استطلاعه آنذاك: كنت شاهداً.. ويكتب قائلاً:

«كان هذا حال التعليم حتى اليوم الأول من شهر نوفمبر ١٩٦٠، وفيه فتحت «المدرسة النهيانية» أبوابها بتشجيع شخصي من الشيخ زايد وشقيقه الشيخ خالد، اللذين قاما بتوظيف المدرّسين بنفسيهما، وأرسلا أولادهما وأقرباءهما للالتحاق بالمدرسة. بدأت بستين تلميذاً كانوا يهرعون كل صباح بملابسهم البيضاء النظيفة، إلى الساحة الواسعة أمام المدرسة، فيؤدون تمريناتهم الرياضية اليومية، تحت أنظار ذويهم، الذين يلتفون حولهم، حاملين صقور الصيد على أذرعتهم، ولا يكتفي بعض الآباء بمجرد مشاهدة أولادهم في الساحة، بل يتوجهون إلى داخل الفصول، ويستمعون مع أبنائهم إلى الدروس التي يلقيها الأساتذة.. ولا يخفي هؤلاء الأساتذة دهشتهم من الذكاء الخارق لأطفال الواحة، ويَعْزُون ذلك إلى أن مفاسد المدنية الحديثة لم تصل إلى تفكيرهم

بعد، والمنتظر أن يقفز عدد التلاميذ في هذا العام (١٩٦١) إلى ثلاثمئة إذا خصصت سيارة لجمع ونقل الأطفال من القرى المجاورة.. فالمدرسة تقع في قرية العين، وحضور التلاميذ سيراً على الأقدام من القرى المجاورة، ضرب من المستحيل. وقد تلقى التعليم في هذه المدرسة الشيخ خليفة بن زايد، والشيخ سلطان بن زايد، والشيخ سرور بن محمد، والكثيرون من أبناء الأسرة الحاكمة».

يقول سالم بن حم: إن أول مستشفى عرفناه هو مستشفى «كندي» الذي يسمى الآن «الواحة» ويقع في جنوب مدينة العين. حيث قرر المغفور له الشيخ زايد ضرورة فتح مستشفى في العين وقد وصل فعلاً الدكتور الأمريكي بات كندي وزوجته الدكتورة ماريان مع اثنين من المساعدين.. وبدؤوا العمل في الحال في منزل الشيخة سلامة القديم ريثما يتم بناء المستشفى الذي أطلقوا عليه اسم مستشفى الواحة، ولكن الناس كما يذكر سليم زبال في استطلاعه عن العين، عرفوا المستشفى باسم مستشفى كندي الذي فتح أبوابه بعد افتتاح المدرسة النهيانية بعشرين يوماً، واستقبل ألف شخص في أول شهرين، والعلاج فيه كان بالمجان سواء للإنسان أو الحيوان،

إذ كان الأهالي يجلبون حيواناتهم المريضة أيضاً من صقور وأبقار ليعالجها الدكتور كندي من أمراضها أو جروحها. وكانت زوجته تتولى علاج السيدات وتولدهن.. ورغم صغر حجم المستشفى. وقلة الأجهزة والعاملين فيه، إلا أن عدد المواليد فيه بلغ ٤٠٠٠ مولود خلال السنوات العشر التالية لافتتاحه.. وجدير بالذكر أنه لم يكن أهل العين فقط هم الذين يعالجون فيه بل كان يأتيه المريض من داخل عُمان ومن أبوظبي نفسها.. ويقول سليم زبال: ومن سجلات المستشفى عرفنا أن الملاريا والدوسنتاريا وفقر الدم وذات الرئة هي الأمراض الأكثر انتشاراً في المنطقة.

ونتوقف عند صفحةٍ أخرى من صفحات ذاكرة الشيخ سالم بن حم.. حيث قام بزيارة معظم البلاد العربية كما زار بعض البلدان الإسلامية والأوروبية وبهذا الصدد يقول بن حم:

> كل ما شاهدته فرحتُ به ولكن بعد مشاهداتي آمنتُ أن ما في أحسن من دياري ديار، مهما كان الفرق، أشوف فيها السنة كأنها يوم.. واليوم بالخارج كأنه سنة.. فالناس هوايتها تختلف.. وأنا هوايتي بداري.

صور تحكي تاريخاً

المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «طيَّب الله ثراه»
بالرؤى الثاقبة والعزيمة والإرادة الصلبة
غدت التأملات.. حقائق
إنه رسم ملامح مدينته المثالية في رمال مدينة العين

هكذا كانت العين عام ١٩٦٠

هكذا كان ساحل أبوظبي عام ١٩٥٤

المغفور له الشيخ زايد في جلسة مودة وإخاء وعن يمينه الشيخ سالم بن حم
وسعادة حمد بن سهيل الخيلي أثناء العمل في سد الشويب ١٩٧٦

المغفور له الشيخ زايد وعلى يساره الشيخ سالم بن حم
في إحدى المناطق الزراعية في ليوا بالمنطقة الغربية ١٩٨٠

المغفور له الشيخ زايد في جلسة ودية مع سالم بن حم

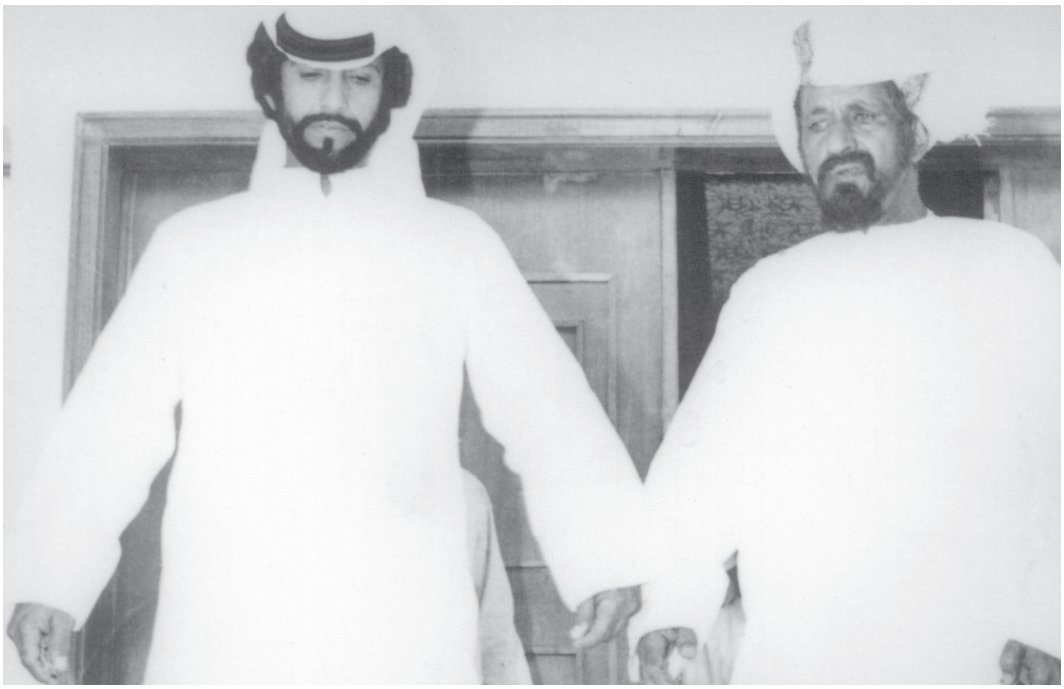

سمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان والشيخ سالم بن حم
في منطقة المرخانية بمدينة العين عام ١٩٧٩

سمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان
في حفل زواج محمد بن سالم بن حم في منطقة العراد على طريق الوجن عام ١٩٨٤

سمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان في زيارة خاصة للشيخ سالم بن حم
بمناسبة عيد الفطر المبارك.. أكتوبر ٢٠٠٨

سمو الشيخ مبارك بن محمد آل نهيان
في حديث مع الشيخ سالم بن حم خلال إحدى الرحلات البرية

سمو الشيخ مبارك بن محمد آل نهيان والشيخ سالم بن حم
خلال إحدى الرحلات البرية ويظهر على يمين الصورة سعود بن عرار الظاهري

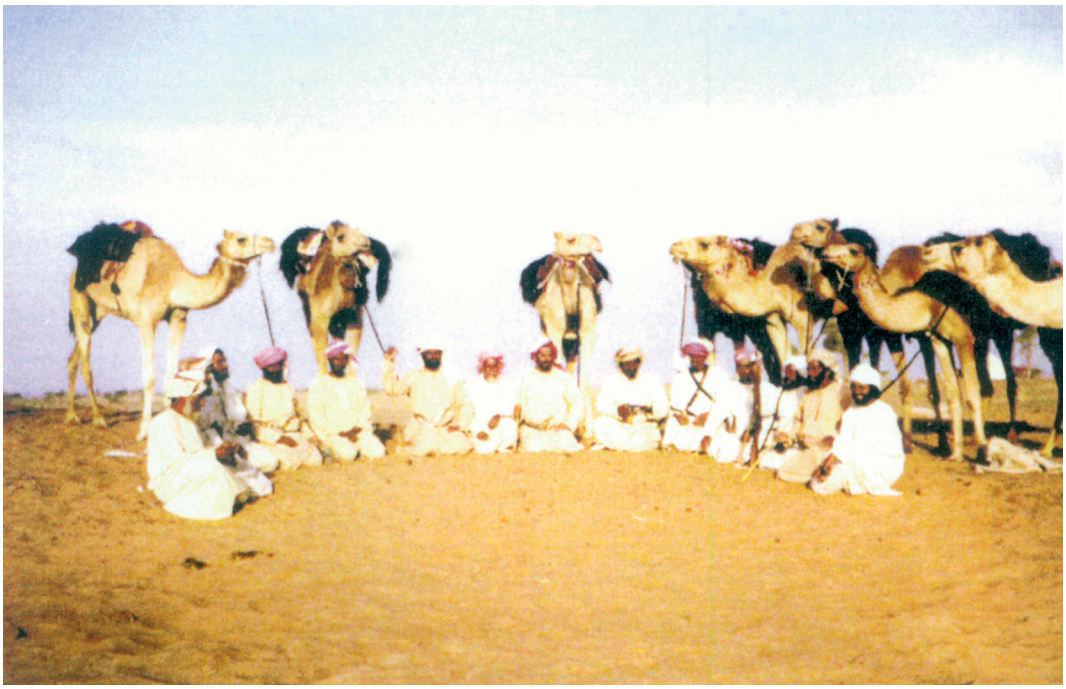

الشيخ سالم بن حم ومجموعة من رفاقه في رحلة برية جنوب مدينة العين عام ١٩٧٩ ويظهر على يمينه كل من: محمد بن مكتوم، مادوب بن محمد، صالح بن طرشوم، حموده بن سالم، الرملي بن محمد. وعلى يساره: سالم بن نصره، علي بن عزيز، بلحلوس بن ذيبان، الدودة بن مكتوم ومسلم سالم بن حم

الشيخ سالم بن حم خلال إحدى الرحلات البرية في مدينة العين عام ١٩٧٩
ويظهر على يمينه كل من: محمد بن مكتوم والرملي بن محمد وسالم بن نصره، وعلى
يساره: مسلم بن سالم والدوده بن مكتوم

الفصل الثالث

الشيخ زايد والتحول في حياة سالم بن حم

الشيخ زايد والتحول في حياة سالم بن حم

الحياة محطات متتابعة.. سماتها، مؤشراتها واتجاهاتها، تصنعها بيئة ونشأة.. إرادة قوية أو ضعف إرادة.. عزيمة وحكمة أو استكانة وجمود.. الحياة تنتزع استحقاقها بالرؤى الثاقبة ولا ترضى بغير المثابرة سبيلاً لبلوغ غايات وأهداف نبيلة.. الإنسان عندما يفكِّر يكون.. الطبيعة تقدِّم والإنسان يدبِّر.. والمستقبل: بصيرة وفراسة.

سالم بن حم: زايد صداقة عمر.. تجربة حياة.. عصر بزمنين وشتان بين الزمنين. يقول ويلفرد ثيسجر، وقد قام بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٠، برحلات في الربع الخالي وما حوله، الصحراء التي تبلغ مساحتها نصف مليون ميل مربع، وتشكل واحدة من أقسى صحارى العالم، إنه عاد إلى المنطقة وزار الإمارات عام ١٩٧٧، فوجد أن التغييرات التي حدثت في فترة عقد من الزمن، ضخمة كتلك التي حدثت في بريطانيا بين أوائل العصور الوسطى والوقت الحالي، ويقول، حين زارها في عام ١٩٩٠، إنها تثير الإعجاب.

المغفور له الشيخ زايد عاش في الصحراء صباه وشبابه.. عاش سنوات التجزئة.. التخلف والفقر والجهل والمرض.. مرارة حياة.. لكن زايد كان صبوراً.. إنه رجل البادية.. صقر الصحراء الذي وُلد في مكان وظروف شبه مستحيلة زادته إيماناً وإصراراً على قهرها.. التحدي بالتحدي.. إنه مفعم بالإرادة الصلبة حتى أيقظ كما يقول كلود موريس: «مجتمعاً محلياً في العين.. ومنذ تلك اللحظة وهو مستمر في تحضير بلاده التي أيقظها من سباتها وأطلق مسيرة شعبها». وموريس هذا كان قد زار الإمارات والتقى المغفور له الشيخ زايد عام ١٩٧٤.

ولنتأمل رؤى زايد ومواقفه خلال ما يقرب من ربع قرن ابتداءً من عام ١٩٤٦ ولغاية عام ١٩٧٠.. أي قبيل تأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من ديسمبر ١٩٧١. لقد استطاع أن يحارب في جبهات عديدة وفي وقت واحد.. بدأ المستحيل يصبح واقعاً ملموساً.. تغييرات كثيرة وتطلعات كبيرة حتى استهوت العديد من الصحفيين العرب والأجانب.. وأخذت كبرى الصحف العالمية تكتب عشرات المقالات عن المنطقة.. وعن الرجل الذي يقود التغييرات.. وغدت مسيرة تلك الحقبة عنوان دراسات معاصرة.. على سبيل المثال ما كتبه راشد عبد الله وهو من الذين نشؤوا في المنطقة ومن أبنائها.. بل هو رجل مسؤول في حكومة أبوظبي آنذاك.. لقد كان عنوان كتابه: زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد.. وقد طبع في مطابع روز اليوسف بالقاهرة مطالع السبعينيات.

ولنتأمل رقمين لعامين: ١٩٤٦ و١٩٦٦.. عام ١٩٤٦ عندما أصبح المغفور له الشيخ زايد حاكماً لمدينة العين وقد أحسَّ منذ بداية توليه المسؤولية بقسوة ما يواجهه أبناؤها من ظروف صعبة.. وكانت ندرة المال والماء هي العقبة الرئيسة أمامه.. ولكن النفوس الكبيرة لا تعرف اليأس، وهذا ما فعله الشيخ زايد.. فكر في خطة للخروج من عنق الزجاجة الخانق الذي يعيش فيه أبناء العين، وقرر أن يفجر الماء في قلب الصحراء.. وعام ١٩٦٦ المنعطف التاريخي في حياة الشعب الإماراتي إذ سبقته ظروف قاسية ألقت بضواغطها النفسية على الآباء والأجداد، أرض صفراء لا تقبل الحياة عليها للأخضر، وبحر يموج يزمجر مرة فيلتهم أعزاء.. ويجود مرة أخرى بما يسد الرمق ويلبي الحاجة في أضيق نطاق.. شتات ممزق، فقرر الشيخ زايد: أن الحدود يجب أن تختفي.. والحواجز النفسية يجب أن تتلاشى.. فالجغرافيا لا يمكن أن تهزم العواطف.. وعلامات الحدود لا يمكن أن تقهر الأحاسيس فكان التطلع لتأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة وهذا ما شهد الثاني من ديسمبر عام ١٩٧١؛ أروع الإنجازات.. معجزة فوق رمال الصحراء.

وقديماً قالوا: طيب العود لا تفوح رائحته إلا بإشعال النار بجواره.. كذلك دولة الإمارات، لا يمكنك إدراك مدى روعة حاضرها إلا بمعرفة قسوة ماضيها.

لقد رافق سالم بن حم الشيخ زايد منذ صباه.. شهد معه قسوة ماضٍ وعظمة حاضر.. وفي الفترتين بكل امتدادها الزمني.. اكتسب سالم بن حم مرتكزات أساسية في بنائه الشخصي وتجربة حياته.. مرتكزات صنعتها رفقته للشيخ زايد.. زايد عمل.. صبر.. أنجز. وبن حم شهد معه الكثير من الأحداث والوقائع والتطورات والمتغيرات.. وفي كل مساراتها كل يتأمل آفاق تفكيره.. إرادته وعزمه.. حنكته وفطنته.. حكمته.. مواجهته للمعضلات.. قراءته للواقع.. وتطلعاته للمستقبل.. في أحد الأيام سأل أحد الصحفيين البريطانيين سالم بن حم حينما كان مرافقاً للمغفور له الشيخ زايد في إحدى رحلاته الخارجية: في أي مدرسة درست؟ أجابه على الفور وبذكاء البدوي الفطري: «درستُ في مدرسة زايد، وما زلت طالباً للعلم والمعرفة فيها إلى يومنا هذا». وبمشاعر صادقة ونابعة من حب ووفاء أصيل يصف بن حم الشيخ زايد قائلاً:

«تعجز كلماتي عن وصفه فقد كان ـ طيّب الله ثراه ـ محبّاً للخير، ودوداً وعطوفاً، صاحب ذكاء فطري، بارّاً بأهله ووطنه، لديه عزيمة قوية وإرادة صلبة، إضافة إلى الحكمة وبُعد النظر في كل الأمور، وهذا ما مكّنه من تحقيق حلم الاتحاد، وبناء دولة عصرية قامت على إنجازات حضارية أقرب إلى المعجزات،

والمتأمل في فكر الشيخ زايد يتبين مدى تركيزه الثابت على فكرة «بناء الإنسان» التي جعلها من أولوياته، وكانت دائماً نصب عينيه في فترة حكمه، وفي كل خطوة خطاها أو أمل تطلع إليه».

أمضى المغفور له الشيخ زايد بعض سنوات طفولته بقصر الحصن في أبوظبي.. ثم انتقل إلى العين التي كانت موقعاً استراتيجياً لتجمعات البدو.. وفي العين: تاريخ يحكي سنوات الصبر والتجلُّد والمقاومة لظروف صعبة.. وحياة قاسية.. سنوات شباب كانت مفعمة بالأمل.. لا تعرف الجزع أو اليأس.. تستلهم من الأجداد: تقاليد وقيم ومثل عليا.

وقبل أن يباشر الشيخ زايد مهامه في العين.. كانت الحالة الاجتماعية والاقتصادية متدهورة، يقول بن حم: كنا لا نعرف طعم الهناء، والهناء عرفناه فقط مع زايد.. عندما تسلم المسؤولية في مدينة العين، ذهبت غشاوة كبيرة كانت تغطي أعيننا، وأصبح بابه في قلعة المويجعي مفتوحاً للجميع، يفضون إليه بكل ما يختلج في صدورهم من معاناة وآمال وطموحات عديدة، يعبّرون عن رأيهم دون خوف أو تردد لأنهم شعروا بأمان كبير معه، وأنه واحد منهم وحريص عليهم، يتألم لألمهم ويفرح لأفراحهم، ويتفانى في مد يد العون للجميع دون كللٍ أو مللٍ،

حتى إن كثيراً من الأجانب وصفوا الشيخ زايد برب أسرة كبيرة يجلس دائماً للاستماع إلى مشاكل الناس ويقوم بحلها ويخرج من عنده المتخاصمون بهدوء وكلهم رضا بأحكامه التي تتميز بالذكاء والحكمة والعدل.. وتعد هذه الفترة هي المرحلة الأهم في حياة زايد التي اختبره فيها شعبه وتقرّب إليه حتى نجح فيها بكل اقتدار.. وهذا ما أهَّله لأن يلحوا عليه كي يتولى مهام مستقبلية أكثر جسامة ومسؤولية.. وهي المرحلة الأولى التي تبلورت فيها شخصية زايد كزعيم لا يعترف بالمستحيل.. وقائد فذ يتقن بمهارة عالية كيف يقود شعبه إلى برِّ الأمان.

يقول ثيسجر وهو يتحدث عن وصوله إلى المويجعي عام ١٩٤٨: اقتربنا من المويجعي.. وكان الشيخ زايد يعيش في هذه القرية.. وعندما خرجنا من الكثبان الحمراء إلى سهل حصوي شاهدت حصنه، وهو فناء واسع محاط بسور، يبلغ ارتفاع جدرانه الطينية عشرة أقدام.. وإلى يمين الحصن، وخلف جدار متداعٍ نصف مطمور بالانجرافات الرملية، مزرعة من أشجار النخيل المغبرَّة غير المتناسقة.. ووراء النخيل ينتصب جبل حفيت المنعزل المتموج السطح على بعد حوالي عشرة أميال وبارتفاع خمسة آلاف قدم.. كنت أتطلع إلى لقاء الشيخ زايد.. جلب أحد الحضور بساطاً لنجلس عليها، وكان الشيخ زايد جالساً على الرمل.. مكثت عند الشيخ زايد حوالي شهر.. كان الزوار يتوافدون عليه بعضهم بدو من الرمال.. راقبته وهو يستمع

باهتمام لكل قضية تُطرح.. والبرهان على براعته: أحكامه.. شهرته في عدالته.

إن المغفور له الشيخ زايد منذ أن تولى مسؤوليته ممثلاً للحاكم في المنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي عام ١٩٤٦.. لم يكن هناك ما يحجبه عن شعبه ويفصله عنهم.. وكانت بابه بقلعة المويجعي مفتوحة للجميع بلا حواجز.. إنه يستمع للكل صغيراً وكبيراً وفي أي وقت من دون تكلف أو تكليف.. هذا ما يذكره بن حم وهو يستذكر سنوات تلك الحقبة التاريخية.. وكان الشيخ زايد يستأنس بمداخلات سالم بن حم الذي كان يجلس بجواره عادة.. وكان يستشيره في بعض الأمور.. رأيه يقدره الشيخ زايد ويعتد به كثيراً.. يقول بن حم: قبل أن يتولى زايد شؤون مدينة العين كان القوي يستغل الضعيف.. ولما عُيِّن ممثلاً للحاكم أقام مركزاً بالعين للصلح بين المتخاصمين من الناس والفصل بينهم بالعدل وإزالة الخلافات بين القبائل.. ولم تمضِ سوى سنتين حتى أصلح بين الجميع ولم يعد أحد يضر بأحد.

كانت العين والمناطق التابعة لها عبارة عن صحراء قاحلة وأرض جرداء إلا أنها شهدت ثورة خضراء ونهضة حضارية هائلة بفضل الاهتمام والرعاية الكبيرة التي أولاها فقيد الوطن والأُمة المغفور له الشيخ زايد لمشاريع تطوير العين منذ أن عُيِّن حاكماً عليها عام ١٩٤٦. ويذكر سالم بن حم: أن الشيخ زايد

كان يتوقف عند الأشجار المهملة واليابسة ذات اللون الأصفر ويعتني بها ويخدمها ويعلِّمنا طرق ريها وتسميدها وكيف نعتني بها ويأمر بتوصيل الماء لها قبل أن يغادر المكان. ويتوقف عند شجرة أخرى آيلة للسقوط فيقومها ويربطها ويوصينا خيراً بمثل هذه الأشجار.. فتحوَّلت الرمال الصفراء إلى لوحات خضراء.

لقد قضى الشيخ زايد ٢٠ عاماً في مدينة العين.. أحبَّ القبائل وأحبته.. زايد كان يتطلَّع إلى توطين البدو.. ويعلم أن الزراعة هي أساس التوطين.. لذلك اتجه إلى إصلاح الأراضي في مدينة العين.. وساهم في رفع مستوى الذين عشقوا الصحراء التي لم تعد حياتهم فيها بتلك القسوة القديمة.. هذا هو زايد: رجل البادية.. صديق القبائل.

وفي ذلك الوقت المبكر كان الشيخ زايد يؤمن إيماناً قاطعاً بالتخطيط.. وبدأ يعمل في ثلاثة اتجاهات: إصلاح الأراضي الزراعية.. إصلاح القنوات والأفلاج.. بناء أفلاج جديدة. وبدأ الشيخ زايد في تطهير الأفلاج القديمة والقنوات التي تصل الماء إلى الأراضي الزراعية.. وبدأ الماء ينساب.. وبدأ اللون الأخضر يكسو المنطقة الشرقية.. ويدفع أمامه في حرب كبيرة اللون الأصفر، وأصبح الناس في كل هذه المنطقة يحصلون على أنواع المزروعات ويصدَّر الباقي إلى مدينة أبوظبي وبعض الإمارات المجاورة.

لقد شهدت المنطقة الشرقية نوعاً من أنواع الحضارة.. وانتقال المجتمع إلى مجتمع زراعي عامل، مستقراً في أرضه، ضامناً أنه سيجد الغذاء غداً.. وعاش الناس في المنطقة الشرقية بقيادة زايد في حالة من الاستقرار لم يشهدوها في تاريخهم الطويل. هذا ما يذكره راشد عبد الله في كتابه القيّم: زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد.. ويقول: إنه من خلال لقاءاتي مع الشيخ زايد.. أستطيع أن أقول: إن الرجل يستطيع أن يفكر في أكثر من اتجاه لبعث النهضة.. وإنه يرى بإلهام كبير: المستقبل.. وكان يرى أن العلم هو أساس الحضارة والرقي.. وأنه لا بدّ أن يعلن الحرب على الجهل الذي ساد المنطقة.. كان يريد أن يرى أطفال البلاد وهم يحملون حقائبهم في طريقهم إلى المدارس حتى يصبحوا بعد سنوات رجالاً مثقفين.. يضعون ثقافتهم في خدمة المجتمع. ولكن الثقافة تحتاج إلى مدارس ومعلمين.. والمدارس والمعلمين في حاجة إلى المال حتى يتمكنوا من القضاء على الجهل.

وأمسك الشيخ زايد ورقة وقلماً.. وكتب رسالة طويلة إلى أحد المسؤولين في وزارة التربية والتعليم بإحدى الدول العربية، يطلب عدداً قليلاً من المدرّسين لكي يأتوا إلى المنطقة الشرقية ليعلموا الأبناء.. الشيخ زايد يذكر هذه الحادثة جيداً.. وقد وقّعها: زايد بن سلطان آل نهيان حاكم المنطقة الشرقية ـ مدينة العين ـ أبوظبي.

وصلت الرسالة إلى المسؤول في الدولة العربية الشقيقة.. وظل الشيخ زايد في انتظار الرد على الرسالة.. وبعد أسابيع طويلة من الانتظار جاء الرد.. وكان في الرد هذه الجمل: أرجو أن تحدد موقع إمارة أبوظبي، وأن تحدد أيضاً المنطقة الشرقية.. أقول هذا مؤكداً أن أبوظبي كانت إمارة منسية حتى على الكثير من المسؤولين العرب.. وهي الآن غير الصورة التي كانت عليها.

وفي عام ١٩٥٩، أقام زايد بقليل من الأموال المدرسة النهيانية الابتدائية في العين.. كان زايد يزور الطلاب في المدرسة والبيت.. يرعاهم ويشجعهم.. فهم الأمل.. الأمل في بناء المستقبل، وكان لهذه المدرسة الصغيرة الفضل في وجود العدد الموجود من المثقفين في إمارة أبوظبي.

واهتم الشيخ زايد بتنشيط الحركة التجارية في العين.. حيث بادر إلى إنشاء سوق تجارية لإنعاش حركة البيع والشراء.. وتوفير السلع للمواطنين.. يقول بن حم: إن ما أنجزه زايد عندما كان ممثلاً للحاكم في العين، لم يكن لأحد غيره أن يحققه بتلك الإمكانات الضعيفة وفي تلك الظروف الصعبة التي كانت تضطره أحياناً إلى الاستدانة لينفق على المعوزين بعد نفاد أمواله الخاصة.. كل ذلك من أجل أن يرفه عن الناس وينهض بمدينة العين.. كان يفعل كل ذلك بدافع المحبة الصادقة لأبناء شعبه ومن أجل أن يراهم يعيشون في رغد ونعيم بدلاً من القسوة

والظروف غير المحتملة التي كانوا يعيشونها.. وقد حرص على القيام بإصلاحات وإنجازات كثيرة، مما جعل العديد ممن عايشوه يرون فيه رجل الإصلاح الأوحد الذي سيحقق طموحاتهم وأحلامهم داخل وخارج مدينتهم العين.. وقد حدث ما توقَّعوه.

وحين زار كلارنس مان أبوظبي وأعدَّ دراسة واسعة عنها عام ١٩٦٤، تنبأ بأن الشيخ زايد سيكون الحاكم المنتظر لإمارة أبوظبي كلها، ومما قاله بهذا الخصوص:

> «إن الشيخ زايد هو الرجل القوي في منطقة العين وضواحيها ومن هنا امتد نفوذه إلى أرض الظفرة.. وإن البدو ليحترمونه. وقد كرّس الشيخ زايد بن سلطان المال القليل الذي توافر لديه للقيام بإصلاحات في منطقة العين.. ويرجع إليه فضل بسط نفوذ أبوظبي على البادية.. ويرشحه كل هذا، إلى جانب عدالته وروحه الإصلاحية، وقدرته السياسية إلى أن يكون رجل البلاد المنتظر في إمارة أبوظبي».

لقد بدأ الشيخ زايد منذ العام ١٩٥٣ يستطلع بنفسه ما يشهده العالم من تطوّر وتقدّم وما تحفل به هذه الدولة أو تلك من متغيرات.. وأصبحت لديه رؤية واضحة زادت من

قناعته بمدى حاجة البلاد إلى التنمية والتطور واللحاق بركب الحضارة والتقدم. وكانت رحلته الأولى إلى بريطانيا وتتابعت بعدها زياراته إلى دول أخرى.. الولايات المتحدة ولبنان والعراق ومصر وسوريا والهند وإيران.. وبهذا الخصوص يقول سالم بن حم: رافقت الشيخ زايد في حلّه وترحاله في الوطن وخارجه.. إنه جانب آخر في التحول الذي شهدته حياة بن حم.

وفي تلك الفترة.. ولم يكن الشيخ زايد قد تولَّى بعد مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي.. زار باريس.. شاهد أكبر متاحفها وقرر في ذهنه أنَّ بلاده قد تشهد يوماً مثل هذه المتاحف على أرضها.. ثم رأى الصحف وأعتقد أن بلاده سوف تكون لها صحفها يوماً أيضاً. كان يراقب ما حوله في إخلاص وصدق وبلا «أوهام».. هذا ما يذكره كلود موريس في كتابه: «صقر الصحراء».

ومنذ اليوم الأول الذي تسلَّم فيه الشيخ زايد مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي: السادس من أغسطس ١٩٦٦.. كان كل اهتمامه أبناء شعبه.. كان يريد أن يعوضهم كل ما عاشوه من حرمان وفقر وتخلُّف.. لقد جاء في الاستطلاع الذي قامت به مجلة العربي الكويتية في إمارة أبوظبي عام ١٩٦١: أراضي أبوظبي مساحة صحراوية شاسعة.. رمالها صفراء وحمراء تتخللها منطقتان زراعيتان.. والحدود الشمالية هي ساحل كبير كثير التعاريج.. الواقف على هذا الساحل يخيَّل له أن هذه

الصحراء الرملية المحرقة قد ألقت بنفسها ـ من فرط يأسها ـ في أحضان الخليج..!. أما الاتصال بين أجزاء أبوظبي فمعدوم.. التعليم في أبوظبي بدأ عام ١٩٥٨ ثم توقف في عام ١٩٥٩ ليبدأ مرة ثانية في عام ١٩٦١. وليس في أبوظبي مستشفى، إنما فيها بعض العيادات الصغيرة.. ويقول محمد عبد الجليل الفهيم، وهو من الذين عاصروا ذلك الزمن الصعب، في كتابه القيّم: «من المحل إلى الغنى.. قصة أبوظبي»: كان معظم الناس يعيشون في بيوت «عرش» أي الأكواخ المصنوعة من خشب وسعف أشجار النخيل وهذه هي الشائعة حتى أواخر الستينيات.. وكان الماء المائل إلى الملوحة المستخدم للشرب والطهي والاستحمام يسحب إما من آبار ضحلة تحفر داخل المنزل أو حوله أو يجلب من آبار مشتركة موجودة على مسافة من مجمعات البيوت. وكانت الآبار العمومية على مسافة حوالي كيلومتر من أبوظبي. وكانت مهمة التردد جيئةً وذهاباً إلى البئر، وهي مهمة شاقة، أسهل على الأُسر التي تملك حماراً يمكن استخدامه في حمل الماء، وفي معظم الحالات كانت النساء هن اللواتي يتولين هذه المهمة فقد كان امتلاك حمار رفاهية لم تكن تتوفر إلا لقلة من الناس.. وكان معظم الناس أفقر من أن يحموا أنفسهم كما يجب من سطوة عناصر الطبيعة. ولم تكن الأحذية وأغطية الرأس موجودة لديهم، ومعظم الناس وخصوصاً البدو يطيلون شعورهم لحماية رقابهم من أشعة الشمس اللاهبة.. وفي الستينيات اتخذت الغترة

والعقال لباساً وطنياً للرأس. وكان معظم الناس لا يجيدون القراءة أو الكتابة، ونسبة الأُمية حوالي ثمانية وتسعين بالمئة. وحيث إن أحداً لم يكن يجيد القراءة تقريباً قبل العام ١٩٦٠ فلم تتوفر لنا سجلات تاريخية موثقة خاصة بنا.. ولهذا السبب فإن أحداً لا يمكن أن يعرف ما الذي كان يجري غير الأشخاص الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت.

هكذا كانت الحياة.. لكن العزم جعلها على النقيض تماماً وبكل تفاصيلها.. «كان الشيخ زايد قادراً على التغلب على عامل الزمن.. إنه بوسائل محدودة غيّر صورة العين والأماكن المجاورة لها، وجعل منها المحور الاقتصادي للمنطقة..». هذا ما جاء في الكتاب التاريخي الوثائقي: «قصر الحصن.. تاريخ حكام أبوظبي ١٧٩٣ - ١٩٦٦»، تأليف جوينتي مايترا وعفراء الحجي.. وعن تولي الشيخ زايد الحكم في عام ١٩٦٦، جاء في الكتاب: كان يُعدُّ بحق شخصية قوية.. الجميع يحترمونه لما يحظى به من صفات قيادية وقدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة والجريئة.. ليحول الحلم إلى حقيقة خالدة.

يقول بيتر هيلير في كتابه: (أيام زمان في أبوظبي..): كانت خبرات الشيخ زايد الممتدة على مدى عشرين عاماً، ممثلاً للحاكم في العين، قد هيأته بشكل مثالي لحكم إمارة أبوظبي.. لقد تبلورت لدى سموه من خلال رحلاته داخل صحارى أبوظبي،

رؤيته المستقبلية لتطوير الإمارة.. وتحرك بشكل فوري لتجسيد تلك الرؤية على أرض الواقع، بالاستفادة من النمو المتسارع لإنتاج النفط وعائداته.. وكانت أبوظبي قد انضمت إلى الدول المنتجة للنفط اعتباراً من عام ١٩٦٢.. وقال الشيخ زايد: «لا قيمة للثروة إذا لم تسخّر في خدمة الشعب». ويقتبس هيلير من مذكرات محمد فهيم قوله وهو يستذكر تلك الأيام: لقد بدأت عملية تحول مذهلة تشق طريقها إلى الأمام.. وبعد ما يزيد على سنة تقريباً من تاريخ تولي الشيخ زايد حكم الإمارة.. كانت أبوظبي تتغير بخطى متسارعة تدير الرؤوس.. لقد كان يتم إنشاء مدينة بأكملها من العدم.

قال الشيخ زايد: لا بدّ من إسعاد الشعب وإقامة نهضة شاملة في كافة المجالات.. لا بدّ ألا نعرف النوم لكي نصل إلى كل آمالنا في فترة قصيرة.. وسألوا الشيخ زايد عندما طرح أفكاره: إن تحقيق هذه الأفكار يحتاج إلى عشرات السنين.. فقال زايد: بالإيمان والعمل المتواصل علينا أن نختصر الزمن.. وفتح أبواب أبوظبي لكل الخبرات.. وأشرف بنفسه على تخطيط أبوظبي.. التخطيط الدقيق في كل اتجاه: في إقامة العمران لكي يسكن الناس في منازل عصرية.. في إقامة الطرق التي تسهل للناس سبل الانتقال.. في إقامة المدارس.. في إقامة المستشفيات.. وفي إقامة الموانئ والمطارات.. وكان الشيخ زايد يقول للخبراء: لا بدّ من السخاء حتى نحصل على ما نريده بسرعة فائقة.. نريد

أيها الرجال أن نختصر الزمن.. وأن نصل إلى أهدافنا بأحسن الطرق وأسرعها.. فلقد عانى الشعب الكثير.

وبدأت المسيرة.. وبدأت الآلات الضخمة القادمة عبر البحار والمحيطات تعمل في أبوظبي.. حتى أصبحت أبوظبي كمعسكر عمل.. صوت الآلات بلا انقطاع.. وأصبح القادم إلى أبوظبي يلحظ تغييراً يومياً في كل اتجاه في أبوظبي حتى غدت أمراً مختلفاً تماماً.. كان الشيخ زايد يقول: ينبغي ألا يقل ما يخصص لمشروعات التنمية في ميزانية كل عام عن ٨٠٪ من واردات البترول.. وكلمته المأثورة: «إنه لا قيمة للأموال إذا لم تستثمر في تحقيق خدمة ومنفعة الناس.. فالأموال زائلة والأعمال باقية أبد الدهر».

لقد جاء في الاستطلاع الذي قامت به مجلة العربي الكويتية في إمارة أبوظبي عام ١٩٦٨: إن أبوظبي اليوم ورشة بناء هائلة جعلت منها جنة للمهندسين والبنائين الذين يقع عليهم العبء الأكبر في تحويل هذه الصحراء إلى مبانٍ حديثة وعمارات ضخمة وشوارع وميادين.. لقد وُلد في مستهل هذا العام مجلس التخطيط.. وهكذا بدأ بناء أبوظبي الحديثة. أبوظبي إمارة من إمارات الخليج العربي.. بدأ اسمها يتردد على كل لسان بعد أن تفجَّر النفط تحت رمالها وتحت مياهها.. لم يكن يزيد عدد سكانها عن ١٥ ألف نسمة عندما زرناها عام ١٩٦١ أما اليوم (١٩٦٨)، فقد قفز العدد إلى ٤٧ ألف نسمة.

وقف الشيخ زايد عام ١٩٦٦ يعلن للعالم مولد عهد جديد للمنطقة بقوله:

«إذا كان الله جلَّ وعلا، قد مَنّ علينا بالثروة، فإن أول ما التزمنا به لإرضاء الله وشكره، هو أن نوجِّه هذه الثروة لإصلاح البلاد، ولسوق الخير إلى شعبها، وذلك عن طريق بناء مجتمع تتوافر له وسائل التعليم والصحة والمسكن والمأكل. إننا نؤمن بأن لهذا الوطن وأبنائه حقّاً علينا بأن يتخلص من مرارة الفقر وقسوة التخلف ليسير في طريق الحياة الكريمة».

وبدأ الشيخ زايد يحقق ما وعد به.. وأعلن خطة خماسية طموحة.. ولما كان هناك إحجام من الأهالي عن تعليم أطفالهم في المدارس لحاجتهم إليهم في أعمالهم، قرر الشيخ زايد منح رواتب لكل طالب وطالبة تتعلم في المدرسة.. مع تقديم وجبة غذاء يومية، وأربعة أطقم ملابس سنوياً بالمجان.. وأثمرت الخطة وارتفع عدد الطلبة من ٧٠٠ إلى ٢٣٠٠ طالب وطالبة، ويجري العمل حالياً (١٩٦٨)، لبناء (١١) مدرسة جديدة مرة واحدة.. وتشرب أبوظبي من مياه منطقة السد قرب مدينة العين من خلال أنبوبين.. وتقدّم المياه مجاناً للمواطنين.. وهناك مناقصة

لإنشاء محطة لتقطير ماء البحر وسوف يبدأ إنتاجها بين شهري أغسطس وسبتمبر من عام ١٩٦٩.. والماء الذي يأتي بالأنابيب من السد قرب العين هو ماء عذب لا يحتاج إلى تصفية.. والعين هي المدينة المفضَّلة لحاكم أبوظبي، فقد كان مسؤولاً عنها قبل أن يصبح حاكماً للبلاد، لهذا ذهلنا عندما وصلناها.. كان قرية صغيرة ضائعة وسط الصحراء عام ١٩٦١ فأصبحت اليوم مدينة مرصوفة الشوارع أضيئت فيها الأنوار قبل أن تضاء العاصمة نفسها.. كانت الجمال تتقاطر إليها من كل صوب، فأصبحت السيارات تقطع شوارعها الطويلة المعبَّدة.. ويمكنك التحدث دون حرج عن عشرات المشاريع العمرانية المخصصة لمدينة العين، والتي ستجعلها المدينة الأولى في أبوظبي الحديثة!. وتختم مجلة العربي الكويتية استطلاعها عن إمارة أبوظبي عام ١٩٦٨.. بما نصه: «ولكن الدخول في تفاصيل المشاريع القائمة في أبوظبي من الصعوبة بمكان لكثرتها وتنوعها.. والأحاديث لا تدور إلا بالملايين وبكلمة «أكبر مصنع وأكبر معمل وأكبر محطة في الشرق».. ولكن هذه المغالاة نرحب بها لأنها طبيعية، ولأنها تكشف عمّا في قلوب القوم من آمال كبار جسام، حقق الله الآمال».

ولنتأمل ما يقوله كلود موريس في كتابه: «صقر الصحراء»:

«نجد في الشيخ زايد، رجلاً تفنن في إحداث
تغييرات هائلة.. هو الذي تولى الحكم في

بلد لا هاتف فيه ولا طرق معبدة، وعدد مدارسه قليل.. إنه يمقت الرجل الذي ينشغل بمستقبله الذاتي... لقد أصرَّ الشيخ زايد على استعداده لصرف آخر فلس من ثروته الخاصة إذا اقتضت الضرورة، لإحداث التغيير الاجتماعي..».

وجاء في الدراسة المسحية الشاملة عن دولة الإمارات العربية المتحدة التي أنجزها معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة: ومما يميِّز حكم الشيخ زايد إرساء قواعد التنظيم الحكومي وإبراز دور أبوظبي في المجال العربي، إذ ما كاد يستقر في الحكم حتى أخذ يضع خطة كبيرة لنهضة إماراته، وذلك بإنشاء مجلس للتخطيط في مارس ١٩٦٨، وقد رَأَسَ الشيخ زايد ذلك المجلس الذي عُهدت إليه مهمة وضع وتنفيذ خطط الإعمار الشامل. وقد رصد للخطة الخمسية الأولى ١٩٦٨ - ١٩٧٢ ثلاثمائة مليون دينار بحريني أُنفقت في التعليم والصحة والزراعة والمواصلات. وكان من بين ما تضمنته تنفيذ مشروع لإمداد الإمارة بالمياه العذبة.. كما تضمنت مشروعاً زراعياً كبيراً في جزيرة السعديات؛ وهي جزيرة رملية صحراوية.

لقد كانت خطة تنموية سريعة مكثفة يقودها الشيخ زايد بكل حزم وتصميم.. عاقداً العزم على تحقيق الرؤية التي راودته منذ

سنوات عديدة.. تنمية أدخلت الإمارة بالفعل إلى العالم المتطور بسرعة هائلة.. وبدأت العائلات التي انتقلت إلى الدول المجاورة بحثاً عن العمل وفرص التعليم التي لـم تكن متوفرة في البلاد أو كانت بطيئة الخطى أواخر الخمسـينيات وأوائل السـتينيات، رحلة العودة إلى الوطن للمساهمة في بناء أبوظبي الجديدة.. إن أول مشاريع الخطة التنموية الكبرى شملت إنشاء نظام للصرف الصحي، وبناء أول مستشـفى في أبوظبي، ومطار دولي، وجسـر المقطع ليحل محل المعبر القديم، وكاسر للأمواج، وشق طريق دولي سـريع بأربعة مسـارات عبر الصحراء إلـى مدينة العين، وشـبكة طرق في كل من أبوظبي والعين، وإنشـاء محطة لتوليد الكهرباء وتحلية المياه.. لقد تم استثمار مبالغ كبيرة من المال في بناء المدارس، وجرى استحداث برنامج لابتعاث الطلاب إلى الخارج للدراسة على نفقة الحكومة.. كما تم التركيز على تعليم الكبار، الرجال والنسـاء، الذين أخذوا يلتحقـون بصفوف محو الأُمية.. وكانت الكثافة السـكانية في إمـارة أبوظبي تتركز على جزيرة أبوظبي نفسـها.. وفي منطقة العيـن وجزيرة دلما وواحة ليوا وخارج تلـك المناطق، كان الناس يعيشـون حيـاة البداوة القاسـية.. ولما كان الشـيخ زايد علـى علم تام منـذ طفولته بقسـوة الحياة في الصحراء.. أصدر تعليماته بشـمول مشـاريع التنمية الأهالي المقيمين في المناطق النائية، وأن لا تتركز تلك المشـاريع في المراكز الكبرى للتجمعات السـكانية فقط.. وفي

بداية عام ١٩٦٩، بدأت محطة إذاعة أبوظبي بالبث.. تبعها في يونيو من العام نفسه، الإرسال التلفزيوني.. لقد تحولت أبوظبي ما بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧١، من قرية ساحلية صغيرة إلى مدينة حديثة عصرية.. ويُعدُّ تطورها مثار إعجاب شديد بكل المقاييس.. هذا ما يقوله بيتر هيلير في كتابه: «أيام زمان في أبوظبي».

لقد أجاب الشيخ زايد حين سأله صحفي فرنسي: هل تعتقد أن الثروة التي ظهرت في أبوظبي وغيّرت كثيراً من مظاهر الحياة غيّرت أيضاً روح المواطن؟

> «أبداً.. لم تسبب الثروة تغيّراً في روح المواطن.. ستبقى الروح كما هي.. وسيبقى الشعور بها كما هو.. كل ما في الأمر أن هذه الروح ستزداد بريقاً وستصقلها الثقافة والعلم..».

هذا ما يذكره راشد عبد الله في كتابه: «زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد».. ويقول: أعلن زايد عن سياسته.. وعلى رأسها ضرورة قيام اتحاد يضم الإمارات العربية الممزقة على ساحل الخليج العربي.. وشعرتُ يومها بالأمل.. وتصور الآخرون أنها مجرد شعارات.. وهناك فرق شاسع بين تأليف شعار من كلمات مرصوصة لدغدغة الناس.. وبين تحقيق هذا الشعار. كانت التصريحات تؤكِّد صدق الرجل.. ومحاولته الصبورة لقيام

اتحاد الإمارات العربية المبعثرة على ساحل الخليج العربي. وفي القاهـرة التقيت بالأخ الصديق الأسـتاذ أحمد خليفة السـويدي وكان وقتها قد عُيِّن حديثاً مديراً للديوان الأميري.. وقال الأستاذ أحمد خليفة السويدي: إن الشيخ زايد يعمل من الآن لقيام اتحاد الإمارات العربية، اتحاد يضم كل الإمارات في دولة واحدة قوية. وقال: ولقد جئنا إلى القاهرة للقاء الدكتور السـنهوري العلاّمة فـي الدسـاتير ليضع لنا دسـتور الاتحـاد.. ويومهـا قلت للأخ السـويدي: وماذا عن العقبات؟ قال السـويدي: لقد تحدثنا في هذا الأمر مع الشـيخ زايد. وقلت: وماذا قال لكم؟ قال الأستاذ السويدي: قال لنا الشـيخ زايد: أنا أعلم هذه العقبات.. ولكني لا أؤمن بالمسـتحيل.. لنحاول في كل ما نتصوره مستحيلاً حتى يتحول المسـتحيل إلى مقربة من الواقع.. ثم يصبح واقعاً نعيش فيه. وقال زعيم البلاد أيضاً: إن الاتحاد هو مطلب أساسـي من مطالب شـعب الخليج العربي، وأصحاب العظمة حكام الإمارات أصدقاء وأشـقاء.. والاتحاد يحتـاج إلى تضحية.. وأنا سـأبذل جهدي لقيام هذا الاتحاد. يقول راشـد عبد الله: إن الشيخ زايد تصرّف منذ اليـوم الأول على أن الاتحاد قائـم فعلاً.. وأن هذه الأرض المتماسـكة والتي يبعثرها خطوط وهمية اسـمها الحدود بين الإمارات لا وجود لها.. كان يرى المسـتقبل بإلهام شديد.. ويعمل لكل صغيرة وكبيرة الحسـبان.. أنا أعرف الرجل.. أعرف أنه ينظـر إلى أبعد من جـدران حدود أبوظبي، بـل من جدران

الخليج العربي.. أعلم أن الرجل يريد أن يحطم هذه الحوائط الوهمية التي تفصل بين أبناء المنطقة.. الرجل لم يكن يخفي طموحه وآماله عندما كان حاكماً في المنطقة الشرقية.. كان يقول دائماً: لو أمكن توحيد هذه البلاد في دولة واحدة قوية.. لو أمكن ذلك فإن كثيراً من أمراض المجتمع سوف تختفي حتى لو لم يظهر البترول.. يقول الشيخ زايد:

«الاتحاد أمنيتي وأسمى أهدافي لشعب الإمارات العربية.. فأبناء هذه المنطقة جميعاً شعب واحد.. إن أبناء هذه المنطقة جميعاً إخوة من أصل واحد. لغتهم واحدة ودينهم واحد.. وحتى الأرض التي عاشوا عليها منذ آلاف السنين كانت دائماً وحدة واحدة.. ولقد جمعهم التاريخ دائماً أيضاً في صف واحد أمام الغزاة والطامعين وفي مواجهة المحن. وأنا في الحقيقة لا أقول شيئاً جديداً فهذه الوحدة قائمة وموجودة منذ القِدَم ويشعر بها أبناء الإمارات في أعماق قلوبهم. إنني أنادي فقط بأن توضع هذه الوحدة في إطارها الطبيعي.. وتأخذ شكلها الرسمي النابع من جوهرها الحقيقي».

عن دولة الاتحاد.. يقول سالم بن حم: بعد أن تسلم الشيخ زايد مقاليد الحكم في إمارة أبوظبي، وقبل خمس سنوات من قيام دولة الإمارات، قدّم سموه خلال هذه الفترة عصارة جهده. وعمل كل ما في وسعه من أجل أن يرى الخير يعمّ جيرانه، وأن يرى حلمه بالاتحاد حقيقة واقعية يقيناً منه أن في الفرقة ضعفاً، وفي الاتحاد منعة وقوة، ففكرة الاتحاد عنده كانت قناعة قديمة منذ زمن بعيد، وكان الشيخ زايد يحدثنا عن فكرة الاتحاد قبل قيامه كأنه يراه، ويعرفه، ويدرك المستقبل، والطريق الذي سيسير فيه، ولم يهدأ حتى حقق حلمه في الوحدة. وكان مجلسه دائماً عامراً بالرجال الصالحين من ذوي الخبرة والرأي السديد يستشيرهم، ويناقشهم، ويستمع إلى آرائهم حتى يكون قراره صائباً. فإعلان قرار الاتحاد في البداية بين إمارتي أبوظبي ودبي كان خطوة أولى لبلورة الحلم الأكبر الذي تحقق على يد زايد مما جعل الفرحة تغمر كل شعوب المنطقة، وهكذا بالصبر والعزيمة الصادقة استطاع زايد أن يجعل الحلم حقيقة، وكلما انتهى من تحقيق إنجاز تجاوزه إلى ما هو أهم وأكبر، زاده في ذلك توكله على الله، وحبه الكبير لشعبه، وسعيه الدائب لإسعاده، والارتقاء به على كافة المستويات، وتوفير سبل الرفاهية والتقدّم.

وتطلع الشيخ زايد في الوقت نفسه إلى بناء المواطن.. إنه أمر هام استطاع برؤيته الثاقبة تحقيقه.. ولم تمضِ سنوات قليلة على توليه حكم إمارة أبوظبي حتى أقيم المجلس الاستشاري

الوطني وكان سالم بن حم من أعضائه.. الجلسة الافتتاحية للمجلس يروي تفاصيلها راشد عبد الله وهو رجل مسؤول في حكومة أبوظبي آنذاك.. يقول في كتابه: «زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد»، ما نصّه: «في الجلسة الافتتاحية قال زايد لأعضاء المجلس الاستشاري: إن ثمة حقيقة واضحة في هذه الحياة.. وهي أن من يقود عباد الله إلى الإخلاص ورضا الله عنه.. فهو سعيد.. وسيصل إلى المنزلة التي ينشدها من السمو والرفعة وإلا أرسل الله غيره ليقود.. وأنا لم أفعل شيئاً بعد فأمامي الكثير أقوم بعمله من أجلكم.. لقد رزقنا الله بالثروة والإمكانات. ولقد قمت بواجبي ولم أقصِّر أو أتقاعس، ولكن لم أجلب الثروة.. لقد أرسلها لنا الله وقادنا إلى استخدامها في الطريق الصحيح.. لأن الثروة إذا لم تصرف في طريقها الصحيح أصبحت نقمة بدلاً من أن تكون نعمة. وتابع حاكم البلاد حديثه قائلاً: «أيها الناس عليكم أن تعلموا أن وطنكم هو بمثابة والديكم.. ولن تكون لنا عزة أو كرامة أو جاه أو سلطان بدون هذا الوطن.. فهو حياتكم ومماتكم، ويجب أن يكون مطلبكم الأول والأخير، واعلموا أن إيمانكم بالله يتلوه ويعقبه إيمانكم بوطنكم». وقال العضو سالم بن حم، موجهاً كلامه إلى الشيخ زايد: الله يرضى عليك يا زايد.. لقد أكرمتَ كبارنا وعلمتَ صغارنا.. ولم تقصر في صغيرة أو كبيرة.. وكنت لنا بمثابة الوالد الحنون. وقال زايد: إن الوالد الحنون إذا لم يهده الله إلى رعاية ولده.. لن يستطيع القيام بواجبه تجاه

ولده.. وقد تصبح بينهم عداوة وخاصم. وصمت زايد لحظات.. ثم قال: يجب أن نتذكر الماضي بعين معتبرة، وقلب واعٍ.. وأن يكون الماضي عبرة نعتبر به لحاضرنا.. إننا إذا أمعنا النظر في الأرض القاحلة لوجدناها قد تحولت إلى أرض خضراء.. والأرض الجدباء الخالية تحولت إلى عمارات وأسواق حديثة.. وطريق الأيام أصبح يقطع في ساعات. إن أكثر ما يفرحنا ويسعدنا.. هو الراحة التي ينعم بها الشعب الآن بعد الشظف والضنك وهذا دليل على رضا الله علينا. إن الأمن والطمأنينة التي نشعر بهما ما هما إلا نتيجة لتوفيق الله ورضاه علينا. ويقف سالم.. متأثراً بحديث زايد قائلاً: وفقك الله يا زايد. ويقول زايد: «إني أحرص عليكم ويهمني أمركم وإسعادكم..».

ولقد جاء في الجزء الأول من الكتاب المعنون: (يوميات زايد): إنه في الثاني من أكتوبر ١٩٧١.. «أدى أعضاء المجلس الاستشاري الوطني الأول اليمين الدستورية بين يدي صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي وذلك في قصر البحر بحضور أصحاب السمو والسعادة الوزراء».

وكان الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ، قد أصدر في اليوم الأول من شهر يوليو عام ١٩٧١، القانون رقم (٢) لسنة ١٩٧١ بإنشاء المجلس الاستشاري الوطني لإمارة أبوظبي، وقام رَحِمَهُ اللَّهُ بافتتاح أول دور انعقاد لهذا المجلس في الثالث من أكتوبر للعام نفسه.

وجاء في المادة الأولى من القانون المذكور: يشكل مجلس استشاري وطني ليعين الحاكم والمجلس التنفيذي (لإمارة أبوظبي) على أداء مهامهما، ويتألف من وجوه البلاد وأعيانها ومن ذوي الرأي والمكانة فيها وممن أسدوا للبلاد خدمات مرموقة.

يقول سالم بن حم: أنشأ الشيخ زايد مجلساً استشارياً لإمارة أبوظبي، ليساعد الحكومة على أداء مهامها ومسؤولياتها الجسام.. وقد قال في هذا المجلس هذه المقولة التي لن أنساها أبداً: «إن واجب أعضاء المجلس الاستشاري الوطني هو المشاركة في بناء البلاد، وإرساء قواعد الحكم على أسس ديمقراطية سليمة تؤمن لشعبنا الحياة الحرة الكريمة.. إن المجلس الذي نبدؤه اليوم ليس جديداً على مجتمعنا فقد عرفت أبوظبي مبدأ الشورى منذ مئات السنين».

إن مبدأ الشورى ليس مبدأ ظرفياً مؤقتاً.. إنه أداة فاعلة.. دورها مؤثر في كل الأحوال والأوقات وفي هذا الصدد يقول الشيخ زايد: «ولسوف يظل مبدأ الشورى من أهم أُسس حياتنا.. وأنا أتطلع إلى المستقبل عندما يأتي الأبناء ويستمرون في تطبيق هذا المبدأ بما يتلاءم وحياتهم وعصرهم ونظمهم».

وهكذا نجد الشيخ زايد لا يكتفي بالدلالة على أهمية هذا المبدأ والعمل به بل يوجه رؤيته إلى الأجيال القادمة للتمسك به والعمل على تطبيقه بما يتماشى وطبيعة الحياة التي يعيشونها..

وحرص الشيخ زايد هنا إنما هو نابع من قناعته التامة بمدى فاعلية هذا المبدأ الذي قال فيه الله ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وكذلك ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ذلك أن الشورى تفتح المجال واسعاً لتبادل الرأي والأفكار والوقوف على الحلول الجماعية الأكثر إصابة للهدف.

ويضيف بن حم قائلاً: إن الشيخ زايد منذ أن كان ممثلاً للحاكم في مدينة العين لم يكن هناك ما يحجبه عن شعبه ويفصله عنهم.. «فخيمته كانت بلا باب».. إنه يتحدث مع الجميع بلا حواجز.. ويستمع إلى الكل صغيراً وكبيراً وفي أي وقت بدون تكلف أو تكليف وهكذا عوَّدنا دائماً.

إن مجلس الشيخ زايد كان عامراً بذوي الخبرة والرأي يستشيرهم ويناقشهم ويستمع إلى آرائهم بكل اهتمام وهذا الأمر يمثل عادة متأصلة في تقاليد الآباء والأجداد. ويقول سالم بن حم: لقد كان الصبر من أهم صفاته التي تميز سلوكه، فطريقه منذ البداية لم يكن سهلاً أبداً، بل كان محفوفاً بالصعاب.. سلاحه الرأي السديد ومحبة الناس له. حين تولى حكم إمارة أبوظبي كان يواجه ضغوط العمل بصدر رحب، يقول بحكمته عن ذلك: «ربما كان ضغط العمل هو الذي أبعد عني المخاوف أثناء معالجة شؤون الإدارة، وكنت أواجه المشاكل بكل ارتياح، وكل عمل حققناه يعقبه شعور بالرضا». وفعلاً فإن الصبر ومواجهة

التحديات جعلت عزمه لا يفتر، وطموحه لا يذبل. وكنا نعرف أنه إذا خرج علينا مبتسماً فذلك يعني أن هناك بعض الأمور الصعبة، ولكن لا يظهرها لنا، وإذا ما خرج علينا صامتاً، فمعنى ذلك أن الأمور حسنة، فزايد عند الشدائد كان لا يبدي لنا إلا السرور والاطمئنان، وهكذا عرفناه دائماً، ليس هناك ما يحجبه عن شعبه أو يفصله عنهم.. مجلسه بلا باب، يتحدث مع الجميع بلا حواجز ويستمع إلى الكل صغيراً وكبيراً وفي أي وقت دون تكلف أو تكليف، كان يحرص على ألا يكون للحرية مضمون أجوف، بل يريدها ممارسة عملية تتجسد في الواقع تشريعياً وتنفيذياً، أي أن يرتبط القول بالفعل ويلازمه، وإلا كانت تلك الحرية هشة بلا فائدة ولا جدوى. ومن هنا كان ـ وبكل بساطة ـ يريد من خلال الحرية أن يقول كل فرد رأيه بكل صراحة من دون مجاملة أو وصاية، وفي المقابل يجب أن يكون هناك من يسمع الرأي وينصفه، وفي هذا الأمر كان الشيخ زايد يقول ويردد: «مطلوب الصدق لا التصديق».. «إنني أريد من كل مواطن أن يعبر عن رأيه بصراحة، لأننا نتلمس من هذه الآراء رغبات المواطنين ونعمل على حلّها، وأنا مع النقد البنّاء وكل مجاملة على حساب المصلحة العامة أرفضها رفضاً باتاً، فالذين يربطهم مصير واحد لا تجوز بينهم المجاملة».

كثيرة هي المآثر والكلمات التي يحفظها سالم بن حم عن ظهر قلب، لرفيق عمره الشيخ زايد والتي منها: «الشيء إن لم

يكن في زيادة فهو في نقصـــان».. «والوقت من ذهب لا يعود إذا ذهب» و«من عرف كيـــف يصرف وقته في أعمـــال مفيدة، عرف التاريخ كيف يكتب لـــه الإنجازات الكبيـــرة». والقول الذي كان الشـــيخ زايد يردده دائمـــاً: «لا فائدة من المال إذا لم يســـخر لصالح الشـــعب». حيث كان ينظر إلى الثورة على أنها أداة يتم اســـتغلالها لتنفيذ الأفكار، لذا حرص على حسن استخدام المال للصالح العام، وليس في الإمارات فقط، بل امتدت يده الســـخية لتصافح الإنسان وتمد له العون في شتى أنحاء العالم.

لقد كان الشـــيخ زايد، يقول بـــن حم: كما عرفنـــاه وعرفه الجميع يتمتع بالحكمة والرؤيـــة الثاقبة، وقد تجلّى ذلك بوضوح من خلال القدرة الفائقة والحرص الشـــديد على تصفية الأجواء بين القبائل وإعادة الوئـــام والأمان إليها، مما كان له بالغ الأثر فـــي تحقيق عنصـــر الأمن والاســـتقرار في المجتمـــع. وقد اتخذ الشيخ زايد من شـــيوخ وزعماء القبائل الذين أحاطوا به وبادلوه حباً بحب، بطانة صالحة تجسيداً لما عرف عنه رَحِمَهُ اللَّهُ من احترام لمبدأ الشورى. يتبادل معهم الرأي والمشورة في كثير من شؤون القبائـــل والأمور الأخرى التـــي تدخل في صلب العمـــل الوطني. وبحكم قربـــي منه كنت أحد الذيـــن حازوا هذه الثقـــة الغالية، وهذا الشـــرف الكبير وذلك بتكليفي ببعض الأمور والمهام التي تدخل في صلب العمل الوطني والتي أنجزناها بفضل المولى عَزَّ وَجَلَّ أولاً، ثم بفضل الشـــيخ زايد ورؤيته الثاقبة وتوجيهاته السديدة،

بنجاح كبير. وإن المجلس الذي كونه للنظر في الأمور المهمة التي تخص الإمارة وأخذ المشورة تجاه مختلف القضايا، كان يتكون من شيوخ القبائل وأهل العلم والدراية سواء كانوا شيباً اكتسبوا المعرفة من خلال تجاربهم في الحياة، أو شباباً نهلوا الفكر النير من خلال تحصيلهم العلمي، واهتم زايد بهذا المجلس وخصص له الرواتب والحوافز المادية التي تجعله يقوم بعمله كأحسن ما يكون. وفي هذا الإطار قال زايد: «ولسوف يظل مبدأ الشورى من أهم أُسس حياتنا وإلى الأبد، أنا أتطلع إلى المستقبل عندما يأتي الأبناء ويستمرون في تطبيق هذا المبدأ بما يتلاءم وحياتهم وعصرهم ونظمهم».

ويقول سالم بن حم عن حرص الشيخ زايد على التنظيم والتخطيط: منذ أن كان ممثلاً للحاكم في المنطقة الشرقية كان يحرص على نظيم أحوال الناس وإصلاح شؤونهم، لأنه يرى أن الفوضى تحدُّ من عمل الإنسان وتجعل الأمور معتمة وغير واضحة، وظلت فكرة التنظيم ماثلة في ذهنه في كل عمل يقوم به سواء في إرساء المؤسسات الحكومية أو المشاريع والبرامج المستقبلية التي كان ينوي القيام بها. ومن التنظيم ينطلق بالتخطيط السليم لرسم آفاق المستقبل. ويؤكد بن حم مراراً: أن رفقته التاريخية للشيخ زايد كانت فضلاً من الله ﷻ، ويقول: «زايد إذا رافقه الإنسان، ما وده أبداً أن يفارقه، حتى إنه رَحِمَهُ اللَّهُ كان في كثير من المرات يطلب من الناس الذين يجلسون معه أن

يعودوا إلى بيوتهم إذا تأخر غيابهم،، لكنهم كانوا دائماً يرفضون ويفضلون البقاء بقربه، وهذا كلام يشهد الله عليه».. حتى الأجانب الذين عرفوا الشيخ زايد في تلك السنوات، وشاهدوا بعيونهم كيف يتعامل مع الآخرين بتواضع وإنسانية وحب، كانوا أيضاً يشعرون تجاهه بالحب والتقدير والإعجاب. وما علمنا أبداً أن هناك شخصاً تعرف إلى زايد وقدر على مفارقته، وما من أحد جلس في مجلسه إلا وخرج منه مستفيداً بالحكمة والرأي السديد، والحماسة للعمل بنشاط وإرادة، كان الشيخ زايد يروي القصص التاريخية والواقعية ليستفيد منها الحاضرون، وفي كل قصة من هذه القصص إشارة إلى البطولة والفروسية أو الحماسة أو الشرف في الأخلاق والتقاليد، كان رَحِمَهُ اللَّهُ خبيراً بكل شيء، مرة نسمعه يتحدث عن الزراعة وشؤونها، وأنواع الزرع والشجر وما يصلح منها في الإمارات وما لا يصلح، ومرة نسمعه يتحدث عن البحر وما فيه من أسماك والمواسم التي تتكاثر فيها، ولم يكن ينفرد بالحديث دون غيره، بل كان يحرص على أن يعطي الحديث لمن يرغب، فإذا وجد الجالسين صامتين كان يروي الحكايات التي لا نمل من الاستماع إليها، وكان يسأل عن الغائبين ويمتدحهم، أما إذا أخطأ أحد فإنه يواجهه بخطئه ولا يتحدث عن ذلك إذ كان الشخص غائباً، ولا أنسى أبداً كيف كان زايد يبدو سعيداً عندما يقصده طالب ومحتاج، لم يكن يرد أحداً، بل كان قلبه مفتوحاً للجميع بلا استثناء.

وكان سالم بن حم موضع تقدير واعتزاز الشيخ زايد «طيّب الله ثراه»، وقد التزم معه في الأوقات الصعبة قبل البترول، وشاركه همومه، كما شاركه أفراحه.

إن الثاني من ديسمبر عام ١٩٧١، يُعدُّ تعبيراً عن خزين تاريخي حفيل بالأحداث والوقائع والمعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم كان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة تجربة رائدة في بناء الدولة الحديثة، وتصحيحاً لوضع شاذ، وتقويماً للخارطة السياسية بكل ما شهدته من مظاهر التقطيع والتمزيق.. وخلال مدة زمنية قياسية، استطاعت أن تكون أنموذجاً يُحتذى به، ناطقاً بالشواهد والمرتكزات على الصعد كافة.

وبكلمات طموحة واثقة لخَّص الشيخ زايد فلسفة دولة الإمارات العربية المتحدة وسياستها وأهدافها، ورسم خطوط انطلاقتها من البداوة إلى الحداثة مع حفاظها على الأصالة.. يقول المغفور له الشيخ زايد:

«إنني لا أرغب في نقل البدو إلى المدنية بل سوف أنقل المدنية إلى البدو».

«ومن المهم أن نعتز بالماضي إذا أردنا أن ننجح في مواجهة الغد».

يقول كلود موريس وقد حظي بمقابلة الشيخ زايد عام ١٩٧٤: «رحب الشيخ زايد بنا.. شاهدتُ الشيخ زايد: فيه عينان قويتان شديدتا التركيز. تحدقان في نظرة ثاقبة، وهي في هذه الصحراء بديل الأوراق الثبوتية للناس، وهي الطريقة التقليدية لتقييم الآخرين. إنه يبدو قوياً، رشيقاً، جيد الصحة، رابط الجأس، بلا شك، وعندما مد يده، بدت لي في شكل مدهش، ثخينة سميكة.. إنها يد رجل حفر بها الرمل وحمل الصخور واصطاد وزرع واستخدم السلاح.. لا يمكن الخطأ في معرفة هوية الشيخ زايد».

ويضيف كلود موريس في كتابه: «صقر الصحراء».. قائلاً:

«جلستُ إلى يساره في مجلسه.. كان يستقبل الناس للتشاور ولسماع مشاكلهم وليقضي فيما بينهم. وسرعان ما أدركت ميّزة المجلس.. فهو مؤسسة ديمقراطية.. تجاوزت مراراً بل يمكن القول: إنها بزَّت التقدّم الجامد في الكثير من السياسة الغربية.. ويستطيع أي شخص أن يدخل المجلس بلا موعد سابق ومعاملة رسمية».

ويقول كلود موريس: وعندما تحدث إليَّ الشيخ زايد عاد بأفكاره إلى الماضي.. كانت أبوظبي في سني نشأته هي ذاتها، لم تكن تدرك بعد أن خيطاً سحرياً يشدها لتصبح من أغنى حقول النفط في القرن العشرين.. قال لي: «لقد أحببتُ ركوب الخيل والصيد، هذه كانت هوايتي التي تولعتُ بها». فقد بدأ

بركوب الخيل منذ الصغر.. كان يرتدي غطاء رأس أبيض وجناداً وحزاماً يحمل بندقية ألمانية أو إنكليزية أو أي بندقية تطالها يده. أما بعض رجال القبائل الذين كانوا يصحبون زايد في أولى رحلاته إلى الصيد، فكانوا يحملون بنادق برتغالية من طراز القرن السابع عشر التي كانت موضوعاً لتندُّر البدو الذين يقولون: «إنها تعطي الغزال فرصة للرياضة»، كما كان يحتمل أن تنفجر في وجه صاحبها. وكان يترتب على الصياد أن ينتظر ونَفَسهُ منقطع لتنطلق القذيفة من سبطانتها البالغ طولها سبعة أقدام، وهي بندقية شبه بدائية.. لقد كان الصيد هواية زايد التي أصبحت، كما اعترف لي، تسلية استحوذت عليه إلى حدٍّ بعيد.. وفي سن الثامنة قام بإحدى أروع رحلات الصيد، أو القنص، بواسطة صقره سعياً وراء الحباري.. وتعلّم أن يعرف من العلامات الرملية أنه في طريقه إلى الحباري والعدد الذي قد يجده منها. كان يمسك الصقر بيده ثم يطلقه في اتجاه الفريسة لينقضَّ عليها من علو ألف قدم. وكان يغلف يده اليسرى بالمنقلة الزرقاء والصفراء المصنوعة من القنب، لحماية يده من براثن الطائر الحادة. وعندما يعود الصقر يلقي زايد البرقع الأزرق على عيني الصقر. وفي هذه السن المبكرة كان يستخدم بندقيته أيضاً بمهارة. وعندما تذكر تلك الأيام، بعد هذه السنين الطويلة، حدثني الشيخ زايد عن متعة تلك الأيام: «كنت أعبر ووالدي الماء في السفينة من

أبوظبـــي إلى الجانب الآخـــر، وكان في صحبتنـــا قرابة ثلاثين شـــخصاً.. كانت الســـفينة الكبيرة ذات الشـــراعين تمخر مياه الخليج في رشـــاقة. وفي الظلّـــة البيضاء عند مؤخر الســـفينة جلســـتُ ووالـــدي وإخوتي وقـــرب مقدمها جلس القبطـــان. لقد حمل الباقون خيامهم وطعامهم.. إذ رحلـــة القنص الواحدة قد تدوم عشـــرة أيام.. وبعدما وصلنا إلى البر ســـار الجميع مئات الأميال في الصحراء، واليوم الموفق قد يشهد قنص اثني عشر طائراً وربما ستة غزلان. ولقد كان لحم الحباري لذيذ المذاق مشـــوياً.. والحباري طائـــر كبير علـــوه قدمان ونصـــف، ويصل وزنـــه إلى ثماني أوقيـــات.. كنا نبدأ يومنا فـــي الرابعة صباحاً مع الفجر، ونعود قرابة الثانية بعـــد الظهر. وإذا كان القنص، سواء بالبندقية أو بالصقور، جيداً عدنا باكراً، حيث كان محتماً علينا حمل الطرائد بأنفسنا.. لقد كان وقتاً للرياضة والمغامرة المثيرة».. ويكتب كلود موريس قائلاً:

«والآن فـــي العـــام ١٩٧٤، فـــإن أي مراجعـــة موضوعية لســـيرة الشـــيخ زايد تبيّن أن هذا الإنســـان الذي وُلد فـــي الصحـــراء قد قدم مســـاهمة رائعة في حيـــاة بـــلاده.. إن صقر الصحـــراء الذي وُلد في مكان وظروف شـــبه مســـتحيلة، قد أيقظ مجتمعاً محلياً في العين. ومنذ تلك اللحظة وهذا الفرد البارز.. مستمر

في تحضير بلاده التي أيقظها من سباتها العميق وأطلق مسيرة شعبها. إن الامتحان الحاسم في حياة الإنسان ليس كونه غنياً أو فقيراً، صغيراً أو كبيراً، إنما في التغيير الإيجابي الذي يحدثه في حياة الآخرين.. وإن مقاييس ذلك الامتحان لا بدّ أن تحكم على حياة الشيخ زايد وتعلن أنه صقر الصحراء».

ونستقرئ الاستطلاع الذي قامت به مجلة العربية الكويتية في مدينة العين عام ١٩٧٤.. وقد نشرته في عددها لشهر ديسمبر من العام نفسه.. تقول في بدايته: الويل لك إن قطعت شجرة في أبوظبي.. إنها الجريمة التي لا تغتفر في هذا البلد النامي. الطرق المستقيمة تلتوي عندما تتقابل مع شجرة.. والمستشفى الضخم الكبير يستبدل مكانه إكراماً لخمسين شجيرة.. وحاكم البلاد يقطع جزءاً من جلبابه ليصلح به اعوجاج شجرة!.. إلى هذا الحد، وأكثر منه، وصل شعور سكان أبوظبي تجاه الشجرة.. إن هذا التكريم يعكس شعور ٧٠ ألف مواطن يعيشون فوق أرض شاسعة تغطيها رمال الصحراء تماماً فيما عدا واحتين هما: العين، وليوا.. وتحت عنوان: شتّان.. بين رحلتين.. يكتب سليم زبال الذي قام بالاستطلاع قائلاً: وإلى واحة العين طارت بعثة العربي، ولم تكن هذه أول مرة تتجه فيها إلى تلك الواحة، فقد سبق أن زرتها في بداية عام ١٩٦٢ ولكن شتّان ما بين الرحلتين.. في الرحلة

الأولى كتبنا نتأسف على حال العين بقولنا: «لقد نسيهم التاريخ حقبة طويلة، حتى أصبحت أبسط مظاهر الحياة تعتبر من الأشياء النادرة الثمينة بالنسبة لهم..». وفي رحلتنا الثانية هذه تبدلت الصورة تماماً.. محطات قوافل الجمال، تحولت إلى محطات بنزين، وصديقهم الودود ـ الجمل ـ ترك مكانه للشاحنات، وللرافعات الضخمة، وللسيارات المكيفة.. وأمواج الرمال، التي كانت تفصل بين أبوظبي والعين، انشقت ليمتد بينها طريق بري واسع طوله ١٦٠ كيلومتراً.. في رحلتنا الأولى نمنا في الخلاء فوق أسرّة مصنوعة من حبل النخيل، وُضعت أرجلها الخشبية في علب بها ماء، خوفاً من العقارب، أما اليوم فقد نمنا في فندق فخم مكيَّف الهواء.. إن قيام مثل هذا الفندق الفخم في تلك البقعة القاحلة كان تحدياً صارخاً للتأخر.. إنه جزء من التطور الذي عمَّ كل أجزاء المنطقة، فقد انطلقت حكومة إمارة أبوظبي تبني وتعمر بأقصى سرعة، في محاولة لتبديل صور الماضي القديم، وبحثاً عن حجم جديد للإمارة.. ولم تكن المسيرة سهلة.. وكان نصيب مدينة العين من الازدهار هو نصيب الأسد.. إنها بلاد الأصالة «الظبيانية».

يقول سالم بن حم: لا يستطيع أحد أن يحصي مواقف الشيخ زايد الحكيمة والرائدة منذ توليه حكم الإمارات.. مواقف المؤسس والباني جميعها تجسِّد وبصدق ما يتحلَّى به هذا القائد الملهم من ذكاء فطري.. وحكمة بالغة.. وبُعد نظر.. إضافة إلى

عشقه الكبير لشعبه.. وإخلاصه اللامحدود لوطنه.. ورغبته الجارفة في الإصلاح والبناء، خاصة في بناء الإنسان باعتباره الثروة الحقيقية للوطن، وفي هذا كله كان الشيخ زايد بالنسبة لي كما كان لكل المقربين منه «مدرسة كبرى» بل منهل الحياة الذي لا ينضب أبداً، نستقي منه في كل يوم المواقف والعبر والمعارف والإدراك الصحيح لكل مفردات ومعطيات الحياة التي نعايشها، ولم لا وهو الذي أولى العلم اهتماماً خاصاً ليستفيد منه الجميع.. يقيناً وإيماناً منه بأن «العلم بصر ونور يهدي الإنسان إلى الطريق السوي ويقود الأمم إلى العز والمجد».

لقد كانت نظرته إلى الأشياء ثاقبة وبعيدة المدى.. كان دائماً يهتم بالمستقبل وبنائه وينظر إليه بعين ورؤية تختلف عمَّن سواه.. كان يخطُّ بعصاه على الرمل موقع الجامعة التي ستحتضن أفواج الطلبة القادمين من المدارس.. وشبكة الطرق التي ستربط بين أطراف المدينة لتسهيل وتنشيط حركة المواصلات، وغيرها من الآفاق والطموحات التي لا تقف أبداً عند حد، وسبحان الله كانت أموره ميسرة دائماً، حيث كنا نرى طموحاته وتطلعاته تتحقق أمام أعيننا بفضل الله ﷻ، كنا نرى هذه الطموحات في تلك الفترة ذات الحياة والظروف القاسية بشكل عام، ضرباً من الخيال والمستحيل، لكن والحمد لله أصبح هذا المستحيل واقعاً ملموساً على يد الشيخ زايد رحمه الله.

ويتذكر بن حم واقعة من الوقائع والحكايات اليومية الكثيرة التي عاشها وعاصرها مع الشيخ زايد فيسردها قائلاً: في إحدى المرات التي كان يخرج فيها في سيارته لتفقد أحوال مدينة العين، وكنت أجلس بجواره في إحدى مناطقها المزروعة بالنخيل والأشجار، فوجئ بعدد من الجمال تأكل في هذه المزروعات، فغضب لذلك كثيراً، وبدأ في نهر الجمال وطردها من المكان حتى يوقفها عن أكل الزرع الأخضر، فما كان مني إلا أن قلت له: «سلمنا يا زايد من دعاء صاحب الجمال فهو الحين يدعي علينا ويقول: والله لأخبر الشيخ زايد عليكم، فما كان من صاحب الحكمة والخبرة الكبيرتين إلا أن استمع لكلامي، وقال لي: نحن نزرع لهم يا سالم، ونحسن من شوارعهم وهم لا يهتمون حتى بجمالهم ويتركونها طليقة، تخرب ما نقوم به من خير يعمهم جميعاً».

ويسرد بن حم قصة الرؤية التي صدقت والتي كان يسمعها دائماً من أجداده حينما كان طفلاً صغيراً، حيث كانوا يقولون: «سيأتي زمن تطلع فيه خزائن الأرض ويقرب البعيد، ويتكلم الحديد وتشيخ العبيد»، وأيامها لم يكن بمقدور الصغير ولا حتى الكبير أن يفهم معنى هذا الكلام، لقد كان شبيهاً باللغز المحيّر؛ لأننا لم نكن نتصور أو نتخيل أن في هذه الأرض الرملية القاحلة الصحراوية خزائن، فكانت على سبيل المثال رحلتنا من العين إلى أبوظبي تستغرق أياماً، فكيف يمكن أن يقرب البعيد؟ وأي حديد هذا الذي سوف يتكلم؟ لكن سبحان الله الذي له

خزائن السماوات والأرض، فقد حلت كل هذه الأمور، وأصبحت فعلاً حقيقة واقعة، نلمسها بأيدينا، ونراها بأعيننا، حتى إننا كنا نحسبها في الزمان السالف ألغازاً نتندر بها، بل أحلاماً ومستحيلات، لكنها تحققت على يد الشيخ زايد، فتحت فعلاً خزائن الأرض، لتخرج ذهبها الأسود (البترول) ويتكلم الحديد ويقرب البعيد.

ويضيف سالم بن حم: لقد حققت دولة الإمارات بفضل القيادة الحكيمة الواعية إنجازات حضارية هائلة في مختلف المجالات خلال فترة زمنية قياسية أشبه بالمعجزات، ولعل المتتبع مراحل تلك المسيرة التنموية الرائدة التي قادها فقيد الوطن والأُمة.. يرى بوضوح مدى الجهد الكبير والإخلاص والوفاء والتفاني الذي بذله المغفور له بإذن اللّٰه الشيخ زايد والذي جسد حلم أبناء الإمارات في حقيقة واقعية بعد أن حقق لأبناء شعبه ووطنه أنجح تجربة وحدوية في القرن العشرين، صارت بمرور الوقت مبعث فخر واعتزاز واحترام العالم بأسره، ووضعت دولة الإمارات في طليعة الدول التي حققت إنجازات حضارية هائلة فاقت كل التوقعات.

يقول بن حم: لقد وضع زايد نُصبَ عينيه ومنذ البداية تحقيق رفاهية ورخاء المواطن وجعلها تتصدر كل الأولويات، وسعى بدأب، وتابع عن كثب خطط وبرامج التنمية والمشروعات

الكبرى التي وفَّرت لأبنائه المواطنين مستوى متطوراً وراقياً من الحياة المعيشية الحديثة التي تقوم على مرافق خدمية متقدمة، وخدمات صحية وعلاجية تضاهي أرقى المستويات، ومدارس ومؤسسات تعليمية، وجامعات تُدَرِّس لأبناء الوطن المناهج المتطورة وتزوِّدهم بأحدث العلوم والمعارف في شتى المجالات. ولا شك أن الأمانة والصدق والعمل بجد واجتهاد وإخلاص تمثل مفاتيح النجاح في الحياة، ومع هذا التطور المذهل والتغيرات السريعة المتلاحقة التي باتت تحكم هذا الزمان لا بدّ للإنسان أن يكون مطلعاً على المستجدات.. ومواكباً للتطورات.. ومتحلياً قدر المستطاع بالعلم والعقل والذكاء والصبر حتى يستطيع أن يواجهها ويتكيف معها.

وبحكم رفقتنا الطويلة للمغفور له الشيخ زايد ومعايشتنا العديد من الأحوال والأحداث التي مرت بها المنطقة.. كانت الإرادة أهم عناصر القوة الفاعلة في مسيرة النجاح التي قادها بكل اقتدار.. وقد يرى البعض أن أهم عامل في هذا الازدهار الكبير لدولة الإمارات إنما هو راجع إلى ثروة البترول التي أنعم الله بها علينا، لكن من جانبي أقول: إن أهم عامل هو ثروة العقل التي وهبها الله لزايد، فعقل زايد هو المفتاح الأساس الذي فتح به بقية الخزائن والثروات الأخرى من بترول وغيره، وقد اقترن بثروة العقل عند الشيخ زايد حبه الكبير واللامتناه لكل فرد من أفراد شعبه، وغيرته الشديدة على وطنه.. ومن هنا تنبع

حكمة زايد، فذات يوم كنت إلى جانبه وإذا بأحد الصحفيين الأجانب يسأله: «يا صاحب السمو، يقول البعض: إنكم صرفتم الأموال الطائلة في زراعة الصحراء القاحلة، فما الغاية من وراء ذلك؟ ألا ترون أن ذلك يُعدُّ إهداراً للثروة؟ وبصدقه، وتلقائيته المعهودة رد الشيخ زايد عليه قائلاً: سوف أجيبك عن طريق السؤال التالي: ألا تعتبر أن الأرض مثل الأم؟ فأجاب الصحفي: «نعم يا صاحب السمو».. إن أي إنسان واعٍ ومدرك ومحب لوطنه يعتبر أرض وطنه مثل الأم تماماً، فقال الشيخ زايد: «إذن نحن متفقون أن الأرض فعلاً مثل الأم ولذلك فإن الأم التي أنجبتني وأعطتني من خيراتها حتى ترعرعتُ وكبرتُ ووجدتُ نفسي غنياً من خيراتها، حينما أنظر من حولي وأراها عارية ولا كساء عليها أليس من واجبي أن ألبسها كساء يليق بمقام الأم؟».. فبهت الصحفي وكل من كان حاضراً من حكمة زايد.. إجابة في منتهى الصدق والإقناع.. ذلك هو زايد الذي عرفناه برؤيته الثاقبة وحبه وغيرته على شعبه ووطنه.

يقول بن حم: عندما حكم زايد استراح الناس، وشعرنا بالأمان الذي بعثه بين جميع القبائل التي عدل زايد أمورها بالعدل.. وأصبحنا نعيش بروح الأُسرة الواحدة، فالعدالة تسود الجميع وزايد هو أب الجميع يستقبلنا ويجلس معنا تحت ظلال شجرة خارج قصر المويجعي.. ومنذ توليه مقاليد الحكم أعلن عن تسخير الثروات من أجل بناء وتقدم الوطن.. ورفع مستوى معيشة شعبه.

ويرجع بن حم بالذاكرة إلى عـام ١٩٧٤ أثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسـلامي الثاني في مدينة لاهور الباكستانية قائلاً: كان الشـيخ زايد يترأس وفد الدولة وأثناء جلوسـنا في إحدى زوايا ردهات المؤتمر تقدم صحفي بريطاني واقترب من الشـيخ زايد محـاولاً الوصول إليه لإجـراء حديث معه وبينمـا حاول الحرس منعه من ذلك، شاهد الشيخ زايد هذا الموقف وطلب من الحرس السماح للصحفي بالاقتراب وأمره بالجلوس بجواره مستفسراً عن رغبته وحاجتـه إلا أن الصحفي بادره بسـؤال قائلاً: معروف عن سموكم ترفيه أبناء الشعب بعطائك السخي.. توفر لهم الخدمات والسـكن الفاخر والرعاية الصحية والتعليـم مجاناً من دون أي مقابل حتى ولو رمزي.. فما هو رد سموكم؟ على الفور وجه الشيخ زايد سؤالاً للصحفي: هل أنت متزوج؟ وهل لديك أطفال؟.. وهل تتكفل بعلاج وتعليـم أبنائك وتوفر لهم الخدمـات الضرورية؟. فأجابه بنعم.. وهنا اقترب الشـيخ زايد منـه قليلاً وكأنه يهمس في أذنه قائلاً: إن شـعب الإمارات هم جميعاً أبنائي.. وأنا الأب المسؤول عن توفير كل احتياجاتهم ومستلزماتهم الضرورية مثلما توفر أنت حاجات أبنائك.

وبهذا الخصـوص يذكر بن حم.. أقـوال وأحاديث زايد التي كان يكررها على مسـامعهم دائماً: إن الرئيس إذا لم يرع شعبه وأبناء دولته فإنه لا يستفيد ولا يفيد.. ولا يكون عندهم إحساس أن وراءهم راعياً يهتم بهـم ويرعاهم.. الرئيـس كالوالد تماماً

فمثل ما يهتم الوالد الحنون بتربية أبنائه ورعايتهم انطلاقاً من واجبه تجاههم فإن على الرئيس أن يرعى كذلك أبناء شعبه ويهتم بهم ويعرف عنهم كل شيء بدقة.. التربية والرعاية سواء أكانت من الرئيس أو الوالد واجبة وبعد ذلك التوفيق من الله.

إن أولويات زايد كانت إقامة المدارس والمساكن.. وتوفير الخدمات الطبية.. وإنشاء المطارات والموانئ.. وشق الطرقات وبناء الجسور.. وغدت الإمارات التي كانت في أحضان الرمال قبل أن يأتي زايد أكبر ورشة عمل في كل اتجاه.. وأصبح هدير الآلات في كل مكان.. وانتقل آلاف الأهالي من منازل العريش والطين إلى البيوت الصحية النظيفة.. وامتدت الطرق الحديثة فوق رمال الصحراء.. ودخلت المياه العذبة والكهرباء إلى كل بيت.. وانتقل التعليم من نظام الكتاتيب إلى المدارس العصرية وانتشرت المدارس على اختلاف مراحلها في كل بقعة من البلاد.. وفتحت عشرات الفصول الجديدة لمحو أمية من فاتهم قطار التعليم.. وبدأت العيادات في تقديم خدماتها الطبية للبدو في الصحراء بعد أن حرموا من الرعاية الصحية طويلاً.. ونجحت المسيرة في تعويض قرون من التخلف والجمود.

إن ذاكرة بن حم.. خزين ماضٍ وحاضر.. إنه شاهد عصر.. العصر الذي كان بكل صفحاته سَجِلَّ تاريخ.. صنع الشيخ زايد صفحاته المشرقة.. الصفحات التي شكلت التحول في

حياة سالم بن حم.. لقد حرص الشيخ زايد على رعاية أبنائه المواطنين وارتبط بهم وعمل على متابعة أحوالهم حتى يكاد يلم بظروف كل مواطن، وأحوال كل منطقة في أرجاء الوطن.. وأصبح أطفال الدولة كلهم يقولون: أبونا زايد. كل عرق فيهم ينبض بحبه.. زايد يحبه الإنسان والمكان والزمان.. غرس الحب والعطاء فحصد العرفان والوفاء من الجميع.

ويقول بن حم: لقد عاش زايد حتى أيامه الأخيرة على عهده بالعين وأهلها، يزورها، ويعاودها، يتجول في مناطقها، ويتفقد ويشاهد على الطبيعة مشاريعها التنموية.. ويوجه بإقامة المزيد منها، تجسيداً لحرصه على توفير أكبر قدر ممكن من الرخاء والرفاهية للمواطنين ولإضفاء مزيد من عناصر الجذب السياحي واللمسات الجمالية على هذه المدينة الجميلة.. مدينة الخضرة والجمال والمعالم الحضارية والتاريخية.. كان يسير على قدميه في وهج الصيف اللاهب وفي مواقع غزيرة الرمال يتابع سير العمل في المشروعات ليصنع من الصحراء جنة.. كان يتابع كل صغيرة وكبيرة ولا يترك أمراً إلا بتَّ فيه وفي جعبته حلٌّ لكل معضلة.

يذكر بن حم: أنه عندما طالت يد التعمير جزيرة صير بني ياس تذمَّر العمال من طبيعة الجزيرة وكثرة انتشار الزواحف بها وتوقفوا عن العمل خوفاً من الزواحف ولبعدها عن المستشفيات،

وعندما وصل الخبر للشيخ زايد أمر بصرف مكافآت تشجيعية لهم، فتحول إضرابهم عن العمل إلى عزيمة وإصرار من أجل الإمساك بالزواحف الموجودة وتنظيف الجزيرة منها، لدرجة أن العمال تركوا أعمالهم وهبُّوا لتنظيف الجزيرة.

ويقول: كانت أبوظبي والعين وكل شبر في الإمارات يستأثر بجلِّ اهتمام الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ إنه خدم الإمارات بإخلاصٍ وتفانٍ.. وعزيمة وإرادة.. ورؤى ثاقبة صنعت مسيرة ناهضة لا تعرف المستحيل.. يصعب كثيراً على أبناء جيل اليوم أن يتخيلوا ماضينا الذي عشناه، ويقدروا الظروف والأحوال التي كان يعيشها الآباء والأجداد بكل جلد وصبر مقارنة بما نعيشه اليوم من أمن ويسر في العيش.. علينا اليوم ألا نترك الصور والمشاهد تغيب عن أذهاننا وأذهان أبنائنا؛ لأنه بالتذكير والمقارنة ندرك أهمية المحافظة على المكتسبات التي نجنيها وننعم بها اليوم.. إنه حب الانتماء لهذا الوطن المعطاء.. قبل زايد لم تكن هناك ثروة.. ولكن ثروة زايد كانت في أعماله وخدماته.. هو الثروة الحقيقية.. والله بارك في أعماله فنجحت وعمت خيراتها القريب والبعيد.. وسيخلد التاريخ اسم زايد ومحبته ستبقى في قلوبنا للأبد.. إنه لم يُنشئ وطناً من بناءٍ وحجر.. وإنما أنشأ شعباً وتاريخاً.

إن «بناء الأوطان يحتاج إلى بناء العقول أولاً».. هكذا كان يقول الشيخ زايد دائماً.. لقد جعل التعليم حجراً أساسياً في

عملية التقـدم.. وكلمـا أتيحت فـرص التعليم أكثـر كان تقدّم ورقي الدولة يـزداد ارتقاء ونماء.. العلم هو سـلاح يمكننا من قهر الجهل والفقر والمرض وتحديات الحاضر والمستقبل.. إنه نور يهدي إلى سبيل الرشاد.. لذلك قدم زايد عطاءاته السخية للعلم ورجالاته.. شـجّع الأبنـاء على إدامة تلقـي العلم والثقافة بميادينها الواسعة لمجابهة متطلبات الحياة ومستجداتها.

وحين نستقرئ الماضي نجد أن الشـيخ زايد قد اهتم ببناء العقول منذ أن كان ممثلاً للحاكم في المنطقة الشـرقية لإمارة أبوظبي.. وبهذا الخصوص نقتبس ما كتبته مجلة العربي الكويتية عن مدينة العين في عددها لشـهر ديسـمبر عام ١٩٧٤.. وتحت عنـوان: تعليـم مجاني ومرتـب شـهري!.. كتبت تقـول: «وأهم المساعدات التي تقدّم للمواطنين هي: التعليم.. فكل طفل يتلقى تعليمه مجاناً، من رياض الأطفال حتى انتهاء بعثته الجامعية في الخارج!! ويتلقى خـلال تعلمه إعانة مالية شـهرية... وقد زيدت أخيراً بمقدار ٢٥٪ تشـجيعاً لطلبة المدارس والمعاهد والمعلمين والمعلمات.. وفي كل مدرسة يتناول الطلبة وجبة إفطار، وتصرف لهم الملابس المدرسـية، وتأخذ كل طالبة فستانين أو تنورتين وقميصين وحذاء، والمواصلات مؤمَّنة من المنزل إلى المدرسـة وبالعكس.. منذ ١٢ سنة كان عدد التلاميذ ٦٠ تلميذاً يتعلمون في مدرسة ابتدائية واحدة.. ولم تكن هناك مدرسة للبنات، أما اليوم فقد قفز العـدد إلى ٧٥٦٠ طالباً، يتعلمون في ٢٨ مدرسـة منها

١٠ للبنات». وجاء في الكتاب المعنون: البدو والثروة والتغيير.. تأليف رايز كوردس وفريد شولز.. وهو يتناول التعليم في أبوظبي مطالع السبعينيات: «وتعطي حكومة أبوظبي التعليم أولوية عليا وتشكل اعتمادات الميزانية لأغراض التعليم أكبر مبلغ من بين المخصصات المعتمدة لميزانية الدولة».. ونعود إلى مجلة العربي حيث قامت باستطلاع عن أبوظبي عام ١٩٧٦ نشرته في عددها لشهر سبتمبر من العام نفسه: «وأصبحت أبوظبي اليوم عنواناً للازدهار من خلال سعيها الحثيث إلى النهوض والنمو، لتأخذ مكانها بين الأُمم الآخذة بأسباب الحضارة..».

يقول سالم بن حم: إن الشيخ زايد كان يردد أمامي «ما لم يتم إنجازه اليوم يمكن تحقيقه غداً.. علينا بالصبر والمثابرة، والإنسان هو الثروة الأولى، فعلينا بناء الإنسان، وتعليمه، والعناية بالشباب، والتطلع إلى ما يخدم مستقبلهم في كل النواحي».. كان يقول دائماً: «من تأنَّى نال ما تمنَّى».

كان الشيخ زايد يحب أن يرى كل الناس سعداء.. وسعادته تكمن في أن يرى كل فرد في المجتمع له شغل منه يفيد ويستفيد.. وفي هذا الصدد يقول: «إن تفكيرنا الدائم في الماضي وعظاته.. وتفكيرنا في الحاضر وآماله.. وتفكيرنا في المستقبل وتطلعاته المشرقة.. هو الذي سيقودنا دائماً إلى بناء وطننا وتقدمه ونهضته».

ولنتأمل اهتمام زايد بالتراث.. إنــه لفتة واعية للتاريخ حتى نســتخلص منه ما هو مفيــد للحاضر والمســتقبل.. وبناء الذات الواعية المعتزة بأصالتها.. ومن هنا فإن الشــيخ زايد لم يترك مجالاً تراثياً إلَّا وأحياه وشجع على ممارسته.. إنه يهدف بالأساس إلى جعل الناشــئة على دراية واعتــزاز بعادات وتــراث الأجداد بكل ما فيه من قيم ومثل عليا.. لقد حــرص على أن يجعل لمن يهوى البحر هواية يمارســها كالتجديف مثــلاً.. وكذلك فعل مع البدوي إذ شــجعه على ممارسة رياضة ســباقات الهجن وركوب الخيل والرماية والصيد.. اهتم بشــتى ما عرف عند العرب منذ قديم الزمن من رياضــة متوارثة مفيدة وقدّم لها الدعم المادي والمعنوي.. كما اهتم بالألعاب الشعبية وشجعها بكل ما تستلزمه من الرعاية.. والمشاركة في إحيائها في بعض المناسبات.. وكان الشــيخ زايد كثير الاهتمام بالفروسية وســباقات الخيول العربية الأصيلــة وســباقات الهجن ويدعو إلــى تنظيمها بشــكلٍ دوري.. واهتمامه بالخيــول العربية الأصيلة جعله يشــترط على المتقدم للســباقات أن يدلي بشــهادة تثبت أن جواده المشارك هو عربي أصيل.. كما خــصّ الجمال بعنايتــه الفائقة وإقامــة العديد من الســباقات الخاصة بها والتــي تعرف بـ«ســباقات الهجن».. أما الرياضة التراثية الأخرى التي أخذت الاهتمام الأكبر في هوايات الشــيخ زايد فهي رياضة الصيــد بالصقور.. ومــن مزاياها كما يراها الشيخ زايد: أن تعوِّد الإنسان على الصبر والجلد والموازنة

بين معايشة البرِّ وحياة المدن.. وهذا من شأنه أن يغذي الإنسان بطاقة بديلة تعطيه دافعاً كبيراً لاستيعاب العمل وما يتضمنه من واجبات.. كما أن رحلات القنص فرصة حقيقية لاختبار معادن الرجال وطباعهم.. وتمكن الإنسان من التحلي بخصال طيبة هي من آداب الصيد بالصقور مثل عدم صيد الحيوان الذي يلجأ للإنسان من شدة العطش أو الجوع.. وكذلك الصيد لا يكون إلا بعد مطاردة الفريسة.. هذا إلى جانب روح الألفة والانسجام بين أفراد المجموعة حينما يقومون بإهداء لحم الصيد لبعضهم البعض.. ويقول بن حم: ولا يكاد يمر موسم شتوي إلا وكنا نخرج مع زايد كنا نمتطي الجمال ثم بعد ذلك صرنا نركب السيارات للذهاب في مسافات طويلة للقنص.

«كان زايد قناصاً بارعاً يهوى الصيد بالصقور ويحب ركوب الإبل والخيل ويسافر مع رفاقه للصيد والقنص في رحلة تمتد بين عشرة وعشرين يوماً، ثم يعودون إلى أبوظبي أو العين.. معظم فصل الشتاء يمضيه زايد في القنص، وأحب الصقور إليه «الحر والشاهين»، أما الحر فهو أقدر في القنص من الشاهين إذ يصيد من ٥ إلى ٧ «طرائد» «أما الشاهين فهو الأسرع».. كذلك كان زايد مولعاً بركوب الخيل وحتى في شهر رمضان كان يركب الخيل ويذهب إلى القنص وهو صائم، وكان يهتم ويحب سماع سيرة الأجداد وبطولاتهم التاريخية في الذود عن محارمهم وأوطانهم ضد كل معتدٍ، وزايد كان شغوفاً بمعرفة تاريخ المنطقة

والأجداد والقبائل المتأصلة بها.. ومجالسة كبار السن للاستماع إلى تجاربهم في الحياة.

لقد اهتم الشيخ زايد بالإنسان والنبات والحيوان.. وما المحمية الطبيعية بجزيرة «صير بني ياس» إلا أكبر دليل على اهتمامه بالحفاظ على شتى أنواع الحيوانات وخاصة تلك النادرة ولقد خصص لها أناساً يشرفون عليها وأقام لها المساحات الشاسعة المسيجة وكل مرافق العيش الآمن.. حتى تكاثرت وازدادت أعدادها.

لقد حظي التراث بكل مفرداته باهتمام ورعاية الشيخ زايد.. لم ينس أهمية الشعر فحافظ على قول الشعر وكرّم الشعراء وخصّص لهم المجالس الشعرية وصرف لهم المعاشات والمكافآت السخية.. وفي ذلك حفاظ على هذا التراث الأدبي الذي تميزت به حضارة العرب منذ زمن بعيد وأقامت له المجالس والأسواق الخاصَّة به.. والشيخ زايد هو نفسه يقرض الشعر ولقد كتب العديد من القصائد الغنية بالحكمة والتوجيه والنصح والتي تعكس ما تنطوي عليه شخصيته الفذة من قيم ومُثُلٍ عليا.

ويقول سالم بن حم عن الصداقة القوية التي كانت تربطه بالشيخ زايد: «لم تكن بيننا أي أسرار طوال السنوات التي عشناها معاً.. ما في شيء بيننا خافي.. كانت الصراحة دائماً

طريقنا وأسلوب حديثنا.. كل واحد يخبر الثاني عما في خاطره دون أي حرج.. وهذا معروف للجميع، وهذا هو أساس الصداقة القوية.. وهذا أيضاً ما جعلني خبيراً بحاله.. أعرفه من كلامه إذا كان شيء في خاطره.. فرحان أم زعلان.. مجرد ما أشوفه وأكلمه أعرفه».. ويضيف بن حم قائلاً: زايد لم يزرع الصحراء فحسب بل زرع فينا القيم والفضائل والمكارم.. غرس الحب والعطاء فحصد العرفان والوفاء.. بكاه البشر والشجر.. وتاقت إليه كل حبة رمل خطت عليها قدمه.

كان المكان يتيم المعالم موحش القسمات.. صحراء شاسعة ذات تلال وكثبان خادعة كسرابها.. كانت شمس الصحراء هي الشيء الوحيد تقريباً الذي يشعر الإنسان بالتغيير عندما تطل بسرعة من الشرق وترحل بطيئة كغلي المرجل ثم تتوارى بعد يوم سحيق بالحر والعرق. يقول بن حم: كان الوقت عصيباً والزمن جار علينا والمرحلة عنوانها الشدة لم يغيرها إلا زعامة زايد لنا ومعدن الرجال يظهر عند الشدائد.. ما بين الميلاد والموت.. رحلة عطاء طويلة.. قطعها زايد بنى خلالها آمالاً كبيرة بينه وبين نفسه والآمال الكبيرة تبدأ بأحلام صغيرة.. لقد كان يحلم ببناء مجتمع جديد تختفي منه تلك المعاناة.. مجتمع فيه المدرسة.. العيادة.. السكن النظيف.. ومضة الكهرباء والماء النقي.. كان يتأمل أبناء البدو والمزارعين والصيادين ويتخيل بينهم الطبيب والمدرّس والمهندس والضابط.. كان زايد يرسم

في ذهنه مجتمع تضيئه شمس الحضارة وتغمره الرفاهية حتى قبل أن يتدفق النفط من جوف الأرض في أبوظبي.. وكان يحلم بجيل ينهل من العلم حتى الارتواء. ويسترجع بن حم ذكرياته مع الشيخ زايد قائلاً: كان كثيراً ما يقف وليس من حوله شيء ثم يقول لنا كلمات كانت غريبة علينا في ذلك الوقت فقد كان يملك في فكره وصدره أعظم شيء كان فكره يعرف الطريق الصحيح وصدره يحتضن آمال أُمته ثم ما نلبث بعد زمن طال أو قصر أن نرى الكلام الغريب حقائق شاخصة أمام عيوننا.

وبهذا الخصوص يتذكر خمسينيات القرن الماضي عندما كان الأهالي يحتفظون بأموالهم في المنازل داخل قطعة من القماش حيث لا وجود للبنوك في تلك الفترة إلا أن الشيخ زايد قال له: «يا سالم سيأتي وقت نقودك لا تحملها معك في حلك وترحالك بل ستجدها أمامك.. ذهب بي خيالي في ذلك الوقت أن هذا الأمر صعب إن لم يكن مستحيلاً.. ومع مرور الأيام صدق كلام زايد لأنه كان يرى ما لا يراه الآخرون وتحقق كلامه حيث انتشرت البنوك في الدولة، وتعددت أنواع معاملاتها».

لقد صنع الشيخ زايد «طيَّب الله ثراه» تاريخاً مضيئاً يجب أن نعرف صفحاته ونديم إعادة قراءته لأنه شخصيتنا وثبات وحدتنا.. قصة مجد صنعه رجل فذ استطاع أن يجعل هذا الكيان أسطورة عمل فريد ووحدة رائدة.. ويقول بن حم: ربما

يكون أهم جانب في شخصية هذا الرجل الفريد هو بساطته وتواضعه الشديدان وهما خصلتان استلهم منهما أسلوبه في إدارة شؤون الحكم وتمثل هذا التواضع في أنه لم يكن يدعي عصمة من الخطأ ولا تكبراً وترفعاً يبعده عن رعيته.. نعجز عن وصف تواضع الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقود سيارته في شوارع وطرقات العين بنفسه ولم يكن يرافقه أي حراس أو سيارات حراسة وعندما يرانا يوقفها ويترجل للسلام علينا ويأمرنا أن نركب معه ويطلب منا إما إن يأخذنا لوجهتنا أو إذا كان لدينا وقت يطلب منا الذهاب معه للقصر من أجل الحديث عن أحوال المواطنين والبلد ويصر على أن نتناول طعام الغداء أو العشاء معه.. كان يهتم كثيراً بمعرفة أحوال الأهالي وأوضاعهم ويصر في جولاته التفقدية أن يسير أمام المنازل الشعبية وفي أوقات مختلفة حتى يرى بأُم عينه الأوضاع المعيشية للشعب وكان يلتقي بكل من يراهم أمام منازلهم ويتحدث معهم ويستمع لطلباتهم بدون تذمر أو تملل ويأمر بتنفيذها.

لقد سخّر زايد حياته لتأمين الاستقرار والرخاء لشعبه دون كلل أو ملل. كانت العين والمناطق التابعة لها عبارة عن صحراء قاحلة وأرض جرداء إلا أنها شهدت ثورة خضراء ونهضة حضارية هائلة بفضل الاهتمام والرعاية الكبيرة التي أولاها فقيد الوطن والأُمة الشيخ زايد «طيَّب الله ثراه» لمشاريع تطوير العين منذ أن عين حاكماً عليها عام ١٩٤٦.. كان رَحِمَهُ اللَّهُ يتوقف عند الأشجار

المهملة واليابسة ذات اللون الأصفر ويعتني بها ويخدمها ويعلمنا طرق ريها وتسميدها وكيف نعتني بها ونرعاها ويأمر بتوصيل الماء لها قبل أن يغادر المكان.. ويتوقف عند شجرة أخرى آيلة للسقوط فيقومها ويربطها ويوصينا خيراً بمثل هذه الأشجار قبل أن يغادر المكان، فتحوَّلت الرمال الصفراء إلى لوحات خضراء بعد أن أحضر المعدات والآلات اللازمة واستقدم المهندسين والفنيين المهرة وبدأت على يديه ملحمة خضراء ستظل درساً ومعجزة في هذا المجال.

ومنذ أن عُيّن الشيخ زايد ممثلاً للحاكم بالمنطقة الشرقية لإمارة أبوظبي عام ١٩٤٦ لم يكن هناك ما يحجبه عن شعبه ويفصله عنهم وكان بابه بقلعة المويجعي مفتوحاً للجميع بلا حواجز.. ويستمع إلى الكل صغيراً وكبيراً وفي أي وقت بدون تكلف أو تكليف.. وعندما حكم وترأس الاتحاد كبرت المسؤوليات وعمل على ترسيخ هذا الأمر من خلال الجولات التي يقوم بها في مختلف مناطق وإمارات الدولة.. ومثَّلت حدثاً وطنيّاً يحتل مكانة متميزة في قلوب ونفوس أبناء شعبه وصيغة فريدة في الحوار وضعها مع بدايات حكمه لتكون سمة حضارية وعلامة مميزة لمسيرة التنمية.. ويهدف من هذه الجولات، التعايش عن قرب مع المواطنين وعلى الطبيعة حيث يقيمون ويتلمس نبض المواطن واهتماماته واحتياجاته وحينها يشعر المواطن بقدرته على الحديث مع قيادته على نحوٍ مباشر ودون حواجز ومسافات

في مشهد يعبّر عن عمق الارتباط بينه وبين المواطنين من ناحية وما حققته المسيرة من قوة وترابط وتكافل وأمن وأمان من ناحية أخرى.

ويقول سالم بن حم: بالرغم من أن المواطن يستطيع أن يشارك ويصل بصوته ومطلبه عبر مؤسسات الدولة المختلفة إلا أن الجولات السنوية التي سبقت هذه المؤسسات واستمرت بعدها ستظل دوماً لها خصوصيتها لأنها أعمق بكثير من مجرد لقاء.. إنها حالة انصهار وتوحُّد في بوتقة سياسية كبيرة يحدد القائد من خلالها أولويات العمل الوطني ومتطلبات التنمية.. وسيظل زايد يحبه الإنسان والمكان والزمان.. لقد عاش وحتى أيامه الأخيرة على عهده بالعين وأهلها يزورها ويعاودها، ويتجول في مناطقها، ويتفقد ويشاهد على الطبيعة مشاريعها التنموية والتوجيه بإقامة المزيد من المشروعات الخدمية والتطويرية، تجسيداً لحرصه على توفير أكبر قدر ممكن من الرخاء والرفاهية للمواطنين، ولإضفاء مزيد من عناصر الجذب السياحي واللمسات الجمالية على هذه المدينة.. مدينة الخضرة والجمال والمعالم الحضارية والتاريخية البارزة.

كان الشيخ زايد يسير على قدميه في وهج الصيف اللاهب وفي مواقع غزيرة الرمال يتابع سير العمل في المشروعات ليصنع من الصحراء جنة.. لقد تغيرت الأحوال كثيراً، والحمد

للّه لقد تطورت الحياة من حولنـــا، من ضنك العيش إلى الخير والنعمـــة والســـعة، والفضـــل كل الفضل يرجع إلـــى المولى ﷻ الذي منَّ علينا بفضلها بزايد الخير، فمنذ أن عرفناه كان اسمه مطابقاً تماماً لأفعاله، فما من يوم مر علينا إلا وازداد فيه الخير والبركة، لكل الناس.

ويضيف ســـالم بن حـــم قائـــلاً: إن كل ما تحقـــق من صنع الحكمة والسياســـة الرشـــيدة التي وهبهـــا اللّه لزايـــد وإخوانه الشـــيوخ أعضاء المجلس الأعلـــى للاتحاد حـــكام الإمارات وكل البطانـــة الصالحة المحبة لوطننـــا الغالي.. منـــذ أن بدأ عهده أيقن أبنـــاء وطنه وأمته، أنهم إزاء حاكم اســـتثنائي تلخصت فيه كل معاني الإنســـانية، وهي معانٍ صارت أساســـاً راسخاً لمسيرته الطويلـــة.. وكان فقيد الوطن بحـــق نصيراً للإنســـانية، وتعدت إنســـانيته الإمارات التي غمرها حباً وعطاءً لتصل إلى شتى بقاع الدنيا، ونقش اســـمه بأحرف من نور ليس في التاريخ فحســـب، ولكن في قلوب البســـطاء والمحتاجين الذين مدَّ إليهم يد العون والمســـاعدة فأقام لهم دور العبادة والمستشـــفيات والمؤسسات الخيرية، فتبدَّلت حياتهم مـــن معاناة وكرب إلى هناء وعز.. ولا بدّ أن نعترف أنه من الصعب علينا أن نســـطر كل ما يجيش في صدورنا وصـــدور كلِّ المحبين لزايد الخيـــر للرجل تاريخ حافل بأســـطر نيرة ومضيئة ومســـيرة عطاء تمتد آثارها ومعالمها على طول وعرض وســـاحة الوطن العربي وبلدان إسلامية كثيرة.. وله

في وطنه ثمار جهد وتعب متواصل حققت نهضة عملاقة يتباهى بها أبناء الإمارات والأُمة معاً.

لقد شهد التاريخ المعاصر بزوغ فجر واحدة من أكثر الدول تطوراً في العالم.. هذا ما يقوله بيتر هيلير في كتابه: «أيام زمان في أبوظبي».

أحمد خليفة السويدي الذي شغل العديد من المناصب قبيل وبعد قيام دولة الإمارات.. وشارك في مسيرتها الظافرة.. حيث كان عضواً في مجلس التخطيط الذي أنشأه الشيخ زايد في العشرين من مارس ١٩٦٨.. وتولَّى رئاسة الديوان الأميري، وشغل منصب وزير الخارجية.. ثم ممثل صاحب السمو رئيس الدولة.. يقول في كلمته لمناسبة جائزة أبوظبي الإنسانية لعام ٢٠٠٦.. وكان سالم بن حم في مقدمة المكرمين من الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة:

«اسمحوا لي يا صاحب السمو أن أتحدَّث بهذه المناسبة عن أحد المكرمين في هذا الحفل وهو الشيخ سالم بن حم الذي عرفته معرفة تامة عن قرب بحكم علاقته ومودته من سمو الشيخ زايد. الشيخ سالم بن حم غني عن التعريف لأنه من أُسرة كريمة ومن

قبيلــة عريقة ومعروفة ومشــهورة مــن قبائل دولة الإمارات العربية المتحدة.. رافق ســمو الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ منذ الصبا، وشهد معه جميع التطورات والتحولات الكبيرة.. كما شهد الأخ ســالم وشــارك في قيام الدولة والإنجازات التي تحققت على أرضها.. قدم خدمات كبيرة وجليلــة لوطنه ولمواطنيه خــلال الفترة التي رافــق فيها ســمو والدكم.. وهو مــن الرجال المخلصيــن القلائــل الذين تعتــز بهم دولة الإمارات ومن الذين قدّموا وما زالوا يقدّمون خدمات كبيرة لوطنهم ولمواطنيهم.. الشــيخ سالم واسع المعرفة والاطلاع وذو خبرة كبيرة والرأي السديد والبطانة الصالحة، ولا شك أن صحبته الطويلة مع الشــيخ زايد ومرافقته له في حله وترحاله في داخل الدولة وخارجها ومجالســته المســتمرة له قد أكســبته خبرة واسعة في الأمور والقضايا العامة إلى جانب ذكائه الفطري. وكان كثيراً ما يحاوره ســمو الشيخ زايد رَحِمَهُ اللَّهُ في مجالسه العامة ويستأنس بآرائه الســديدة في كثير مــن القضايا التي تهمُّ الوطن والمواطنين...».

وجاء في التعليق التلفزيوني لقناة أبوظبي عن الشيخ سالم بن حم، أثناء تسلُّمه جائزة أبوظبي الإنسانية التي أشرنا إليها:

«إنه من الرجال الذين لم تَرْضَ عن العزيمة والإصرار بديلاً، وسواعد لم تثنها النوائب ولا الشدائد، وأقداماً تعلمت الثبات والرسوخ من جذور النخيل المتأصلة في هذه الأرض الطيبة.. سالم بن حم العامري، صاحب النشأة البدوية الأصيلة، الذي رافق منذ شبابه المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان طيَّب الله ثراه، وعاصر معه جميع مراحل التغيير، فهو الأخ والصديق الذي لم يغب أبداً عن مجالس الشيخ زايد كما أنه من بين الرواة لكل ما يتعلق بتفاصيل سيرة المغفور له. نقطة انطلاق بن حم.. شخصية عامة، كان من أوائل الذين عملوا على تحقيق الأمن والأمان في وقت كانت فيه التحديات التي تواجهها أبوظبي قبيل قيام الاتحاد عديدة.. وبقيام دولة الإمارات العربية المتحدة لم يتوقف عطاء الرجل، فبتوجيه من الراحل الكبير، أنجز سالم بن حم العديد من المهام

التـــي تدخل في صلب العمـــل الوطني، أهمها فضُّـــه النزاعات وتقريبه وجهـــات النظر بين بعض القبائل في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ الدولة الوليـــدة.. وفي مرحلة لاحقة... دخل بن حم معترك الحياة النيابية عضواً في المجلس الوطني الاستشـــاري لإمـــارة أبوظبي لســـنوات عدة، جعل خلالها هموم المواطنين ومشكلاتهم شغله الشـــاغل.. ويبقى سالم بن حم واحداً من أبناء أبوظبي المخلصين الذين قدّموا الكثير من المبادرات والأفكار، وأدركوا أن الرحلـــة طويلة وأن الوصـــول إلى نهايتها، لن يأتي من دون جد وعمل دؤوب تشـــمر لها سواعد الرجال».

إن الجهد المخلص والدؤوب الذي تتميز به مسيرة الإمارات الظافـــرة.. جعل المســـتحيل ممكناً.. والحاضر زاهـــراً.. والتطلع لمســـتقبل باهر يقيناً.. الضمان في صدق العزم وجلال الطموح إلى العمل المبدع.

لقد صنع الشـــيخ زايـــد «طيَّب الله ثـــراه» تاريخـــاً خالداً.. تاريخاً حافزاً.. فثمة تاريخ يثقل الفرد أو الأمة، ويشـــل الحيوية ويضعف الهمة.. وثمة تاريخ آخر يحفز وينشـــط ويبعث.. وتاريخ

الإمـــارات حافز لأبناء الإمـــارات والأُمة معاً.. إنـــه التاريخ الذي تتجلَّى فيه أصالة الشـــيخ زايـــد وحكمته وعزيمتـــه وإرادته التي جعلت التطلعات والآمال والأحلام.. حقائق.

صور تحكي تاريخاً

المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «طيَّب الله ثراه»
ممتطياً صهوة أحد الجياد العربية الأصيلة (١٩٦٦)

المغفور له الشيخ زايد «طيَّب الله ثراه»
وعلى يساره صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان رئيس الدولة
وسمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان ممثل الحاكم في المنطقة الشرقية
لقاء تتجلَّى فيه إشراقة الأمل بالحاضر والمستقبل

المغفور له الشيخ زايد في جولة تفقدية لجزيرة دلما (١٩٨٠)
وعلى يمينه الشيخ سالم بن حم، وعلى يساره الشيخ أحمد بن حامد

المغفور له الشيخ زايد في إحدى رحلاته البرية
ويظهر على يساره الشيخ سالم بن حم، ومبارك بن فاضل،
وعلى يمينه المرحوم عبد الله بن أحمد العتيبة

المغفور له الشيخ زايد في قصر الحصن سنة ١٩٦٧
وعلى يمينه الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد يتفقَّد أحد مشروعات تعمير الصحراء
وعلى يمينه الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد في زيارة لإحدى مدارس البنات
ويظهر على يمينه الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد بميناء جبل الظنة في طريقه إلى جزيرة صير بني ياس
لمتابعة أعمال تطوير الجزيرة، ويظهر خلفه الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد يتابع أعمال زراعة أشجار القرم على كورنيش أبوظبي
ويظهر خلفه الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد يتفقَّد ثمار الخير التي جادت بها الأرض الطيبة في ليوا عام ١٩٨١
وبجواره الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد والشيخ سالم بن حم
نظرة تفاؤل بالمستقبل

المغفور له الشيخ زايد أثناء تفقُّده لمنطقة عمل على ساحل البحر ويظهر خلفه
سمو الشيخ سلطان بن خليفة والشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ زايد يداعب، في لمسة أبوية، بعض الأطفال
ويجلس على يساره الشيخ سالم بن حم

المغفور له الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم والشيخ سالم بن حم
لقاء مفعم بالود وجلال معانيه الأخوية

صاحب السمو الشيخ حميد بن راشد النعيمي عضو المجلس الأعلى حاكم عجمان
اعتزاز بالشيخ سالم بن حم.. وفي الذاكرة مسيرته المعطاء في خدمة الوطن

الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي ـ
نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة يكرم الشيخ سالم بن حم
بجائزة أبوظبي الإنسانية في دورتها الثانية ـ ديسمبر ٢٠٠٦

جلسة في قصر البحر بحضور المغفور له الشيخ زايد «طيَّب الله ثراه»
وفي جانب من المجلس سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء
وسمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان ممثل الحاكم في المنطقة الشرقية يتوسطهم
الشيخ سالم بن حم

سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء وسمو الشيخ سيف بن زايد آل نهيان وزير الداخلية يتوسطهم بن حم وسعادة محمد بن حبتور الرئيس السابق للمجلس الوطني خلال العرس الجماعي الأول لأبناء قبيلة العوامر في اليحر

سمو الشيخ حمدان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء
في جلسة ودية مع بن حم

سمو الشيخ مبارك بن محمد آل نهيان والشيخ سالم بن حم في حديث ودي

سمو الشيخ مبارك بن محمد آل نهيان وسمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي، يتوسَّطهم الشيخ سالم بن حم جلسة ود.. وحميمية لقاء

احتفالية تكريم سعادة الشيخ سالم بن حم بجائزة أبوظبي للأعمال الإنسانية عام ٢٠٠٦ في قصر الإمارات، وعلى يمينه معالي أحمد خليفة السويدي ممثل صاحب السمو رئيس الدولة، وعلى يساره سعادة الشيخ مسلم بن سالم بن حم

سعادة محمد الحبتور الرئيس السابق للمجلس الوطني في حديث ودي
مع الشيخ سالم بن حم والشيخ مسلم بن سالم بن حم

الشيخ سالم بن حم في شبابه المفعم بالحيوية والعزيمة

الشيخ سالم بن حم يتحدث في المجلس
الاستشاري الوطني لإمارة أبوظبي
عطاء متواصل في خدمة الوطن

الشيخ سالم بن حم في داره العامر بالمرخانية في مدينة العين ٢٠٠٨

سعادة الشيخ سالم بن حم في حديث مع مؤلف الكتاب الدكتور علاء نورس
بحضور الشيخ مسلم بن سالم بن حم والشيخ الدكتور محمد بن مسلم بن حم

المصادر

- إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، أبوظبي توحيد الإمارة وقيام الاتحاد، ط١، مركز الوثائق والبحوث، أبوظبي ٢٠٠٤.
- إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، قصة وثيقة.. الخريطة القبلي لإمارة أبوظبي، مجلة ليوا، مركز الوثائق والبحوث، العدد الثالث عشر، أبوظبي، يناير ٢٠٠٥.
- أرشيف وكالة أنباء الإمارات.
- بن حم، سالم، رحلتي مع زايد، ط١، ١٩٩٩.
- بيركس، جى، إس وسالى. آى. ليتس، العوامر: قبيلة متخصصة بحفر الآبار والأفلاج، عُمان، ١٩٨٢.
- التكريتي، وليد ياسين، الأفلاج في دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة آثارية في أنظمة الري القديمة، أبوظبي ٢٠٠٢.
- تمام، حمدي، موسوعة زايد، الكتاب الأول، الإمارات.. الإنسان.. والوطن، ط١، ١٩٩٢.

- ثيسجر، ويلفرد، الرمال العربية، ترجمة إبراهيم مرعي، ط٤، ١٩٩٩.
- جريدة الاتحاد، الأربعاء ٢٥ ذي الحجة ١٤١٨هـ الموافق ٢٣ إبريل ١٩٩٨م، قصائد من الماضي، ديوان يوثق تغاريد وقصائد الشاعر محمد بن حم العامري.
- جريدة الاتحاد، الملحق الثقافي، الخميس ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ الموافق ٥ أغسطس ١٩٩٩م، سالم بن حم لـ«الاتحاد الثقافي»: لولا ثروة العقل عند زايد لما استطعنا أن ننعم بثروة البترول التي جاءت لاحقاً.. مقابلة صحفية بمناسبة صدور كتابه المعنون: رحلتي مع زايد.
- جريدة الاتحاد، الخميس ١١ شوّال ١٤٢٧هـ الموافق ٢ نوفمبر ٢٠٠٦م، (عامان على رحيل القائد المؤسس)، سالم بن حم: القائد بدّل زمن الشدة إلى رخاء وعطاء.
- جريدة الاتحاد، الأحد ٢٥ ذي الحجة ١٤٢٧هـ الموافق ١٤ يناير ٢٠٠٧م، سالم بن حم في حوار مع الاتحاد: «مدرسة زايد نبع لا ينضب.. والنهج يتواصل بقيادة خليفة».
- جريدة الاتحاد، ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٧م، مقابلة مع الشيخ سالم بن حم: رمضان.. شهر التواصل الاجتماعي والعطاء الروحي.
- جريدة الخليج، الملحق الخاص بالعيد السادس والثلاثين لجلوس المغفور له الشيخ زايد «طيّب الله ثراه»، سالم بن حم متذكراً رحلته مع زايد.
- جريدة الخليج، العدد ٦٨٢١، الأربعاء ٢٣ رمضان ١٤١٨هـ ٢١

يناير ١٩٩٨م، مقابلة مع الشيخ سالم بن حم العامري: تعلمت في مدرسة زايد.

- جريدة الخليج، العدد ١٠٠٢٨، الخميس ١١ شوّال ١٤٢٧هـ ٢ نوفمبر ٢٠٠٦م، تاريخ إنسان وحضارة وطن، لقاء صحفي: سالم بن حم: زايد كان حاكماً استثنائياً جمع كل معاني الإنسانية.
- جريدة البيان، العدد ٩٦٣٣، الخميس ١١ شوّال ١٤٢٧هـ ٢ نوفمبر ٢٠٠٦م، زايد.. تاريخ إنسان وحضارة وطن، الذكرى الثانية لرحيل المغفور له الشيخ زايد «طيّب الله ثراه»، لقاء صحفي: ذكريات سالم بن حم.
- جريدة الفجر، العدد ٨٧٩٦، الخميس ٢ نوفمبر ٢٠٠٦، زايد.. تاريخ إنسان وحضارة وطن، مقابلة مع سالم بن حم: زايد قاد بنجاح أكبر وحدة عربية في التاريخ الحديث.
- خصباك، شاكر دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة في الجغرافية الاجتماعية، بغداد ١٩٧٧.
- زبال، سليم، كنت شاهداً.. الإمارات من عام ١٩٦٠ إلى ١٩٧٤.. رحلة العبور من مشيخات متناثرة إلى دولة اتحادية متماسكة، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي ٢٠٠١.
- السويدي، أحمد خليفة، نص كلمته في مناسبة جائزة أبوظبي الإنسانية لعام ٢٠٠٦.
- عبد الله، راشد، زايد من مدينة العين إلى رئاسة الاتحاد، مطابع روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٠.

- الفهيم، محمد عبد الجليل، مـن المحل إلى الغنى.. قصة أبوظبي، ط١، دبي ١٩٦٦.
- كـودراي، رونالد، وجوه من الإمـارات، صور من الألبـوم العربي، ديوان صاحب السـمو رئيس الدولـة، مركز الوثائق والدراسـات، ط١، دبي ٢٠٠١.
- كـوردس، رايز وفريد شـولز، البـدو والثروة والتغيّر، دراسـة في التنمية الريفية للإمارات العربية المتحدة وسـلطنة عُمان، ترجمة عبد الإله أبو عياش، الكويت ١٩٨٣.
- كيلي. جي. بي، الحدود الشـرقية لشـبه الجزيرة العربية، تعريب وتعليق: خيري حماد، بيروت ١٩٧١.
- مايتـرا، جوينتي وعفـراء الحجي، قصـر الحصـن.. تاريخ حكام أبوظبي ١٧٩٣ـ١٩٦٦، مركز الوثائق والبحوث، أبوظبي ٢٠٠١.
- مايلز، سـمويل باريت، الخليج بلدانه وقبائلـه، ترجمة محمد أمين عبد الله، عُمان ١٩٨٢.
- مجلة العربي (الكويت) الأعداد: مايو ١٩٦١، فبراير ١٩٦٢، ديسمبر ١٩٦٨، ديسمبر ١٩٧٤، سبتمبر ١٩٧٦.
- مجلة الهلال، مجلة جمعية الهلال الأحمـر لدولة الإمارات العربية المتحدة، العدد ١٦، السـنة الرابعة، ربيع الثاني ١٤٢٠هـ أغسطس ١٩٩٩م، لقاء: سالم بن حم.. وذكريات مع زايد الخير.
- مجلة المرأة اليـوم، مجلة تصدر عن العربيـة للصحافة والإعلام،

مقابلة مع الشيخ سالم بن حم، نشـرت في حلقات، الأعداد: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥ من شهري مايو ويونيو عام ٢٠٠٦.

- المجمـع الثقافي، دار الكتب الوطنية، كشـاف الجريدة الرسـمية لإمارة أبوظبي، ١٩٦٨ - ١٩٨٨، أبوظبي ١٤١١هـ ١٩٩١م.
- مركز الوثائق والبحـوث، يوميات زايـد، ج١، ١٩٦٦ـ١٩٧٦، ط١، أبوظبي ٢٠٠٣.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسـة مسحية، القاهرة ١٩٧٨.
- موريس، كلود، صقـر الصحراء.. قصة حياة الشـيخ زايد، أبوظبي ١٩٧٥.
- هيلير، بيتر، أيام زمان في أبوظبي، ط١، أبوظبي ٢٠٠١.

الفهرس

تقديم ٧

كلمة المؤلف ١١

الفصل الأول

الجذور.. وسنوات النشأة ١٥

الفصل الثاني

سالم بن حم وذكريات الماضي القريب ٣٣

الفصل الثالث

الشيخ زايد والتحول في حياة سالم بن حم ١١١

المصادر ٢٣٣